

تاريخ الرومانيين

محمد فريد



تاريخ الرومانيين

تاريخ الرومانيين

تأليف
محمد فريد



تاریخ الرومانيین

محمد فرید

كلمات عربية للترجمة والنشر

جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسؤولية محدودة)

إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تلفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ فاكس: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١

البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org

الموقع الإلكتروني: <http://www.kalimat.org>

الغلاف: تصميم إيهاب سالم.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لشركة كلمات عربية
للترجمة والنشر. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة لملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2012 Kalimat Arabia.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧

مقدمة

٩

القسم الأول

١١

تأسيس مدينة روما

١٥

الملك نوماپونبليوس

١٩

الملك أنكوس مارسيوس

٢١

الملك ترakan الأول

٢٣

الملك سرثيوس تليوس

٢٥

الملك ترakan الثاني

٢٧

القسم الثاني

٢٩

الحكومة الجمهورية

٣٥

نظمات الرومانين الأولى

٤١

الجمهورية في عهد القنادل الأشراف

٤٩

خيانة كوريولان

٥٣

حكومة العشرة وحصول الشعب على المساواة في الأمور المدنية

٦٣

إغارة الغاليين (الجلالقة) على روما

٦٧

حصول الشعب على المساواة في الحقوق السياسية

٧١

فتح إيطاليا

٧٥

إدارة وتنظيم الأقاليم الإيطالية

تاريخ الرومانيين

٧٧	الحرب البوينيقية الأولى
٨٣	إغارة بعض قبائل الغاليين على روما
٨٩	الحرب البوينيقية الثانية
١٠٥	حرب مقدونية
١٠٩	محاربة انتيوكوس ملك الشام
١١٣	بعض حروب أخرى
١١٥	محاربة مقدونية وجعلها ولاية رومانية
١١٧	زوال ملك قرطاجة وخرابها

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله: أما بعد؛ فلا مرية في أن مطالعة التاريخ من أهم الأمور التي تثقف العقول وتهذب الأخلاق وتتنمي العواطف الوطنية في الشعوب؛ إذ بواسطتها يقف الإنسان على أسباب ارتقاء الأمم فيتبعها ويعلم كنه موجبات انحطاطها فيجتنبها، ولذلك حض العقلاة على درسه درساً فلسفياً لا الاكتفاء بحفظ بعض توارييخ الواقع وأسماء الملوك وسردها عن ظهر قلب، بل بالبحث والتنقيب عن أسباب كل حادث والوقوف على حقيقتها وربط الحوادث ببعضها، ولكي يتمكن المطالع من الاستفادة من مطالعته يجب على كاتب التاريخ أن يراعي كل هذه الملحوظات عند كتابته حتى يأتي بالغرض المقصود وتكون مطالعته مفيدة للأهل والوطن، هذا؛ ولما كان تاريخ الرومانيين مفعماً بالحوادث الصادرة عن حب الوطن والإخلاص له والتفاشي في خدمته والتهاك في الدفاع عنه والذود عن حوضه، وكانت مطالعته واجبة على كل من يريد معرفة طرق تقدم الأمم وارتقائها وكيف تناول الحرية والاستقلال بالدفاع عن حقوقها قبل كل معتدٍ ظالم، والاتحاد على ما فيه خير وطنهم وفلاحة وجمع كلمتهم أمام الأجنبي المهاجم والدخيل المزاحم ونبذ النفاق والشقاق من بينهم ليكونوا يداً واحدة لإعلاء شأن الوطن وبنيه؛ أردت أن أخص تاريخ هذه الأمة التي ملكت أغلب جهات المسكونة وامتدت حدود أملاكها من المحيط الأطلسيغربياً إلى جبال القوقاز شرقاً؛ أي: من الدرجة ١٢ غرب باريس إلى الدرجة ٤٠ شرقاً عبارة عن ٥٢ درجة، ومن بلاد بريطانيا (إنكلترا) شمالاً إلى أصوان جنوباً؛ أي: من الدرجة ٢٣ إلى الدرجة ٥٣ عرضاً مبتدئاً هذا التاريخ من تأسيس مدينة

رومة عاصمة هذه المملكة في سنة ٧٥٤ قبل الميلاد إلى يوم دخول مدينة القسطنطينية (الأستانة) في حوزة دولة آل عثمان في سبتمبر سنة ١٤٥٣ بعد الميلاد، وقد قسمته إلى خمسة أقسام الأول من تأسيس روما إلى سقوط الملكية وتأسيس الجمهورية، والثاني يحتوي على تاريخ الجمهورية الرومانية إلى عهد استئثار أغسطس بالحكومة وتأسيس الحكومة الإمبراطورية، والثالث ينتهي إلى تقسيم الدولة الرومانية إلى دولتين شرقية وتحتها بيزنطة التي سميت فيما بعد القسطنطينية وهي الأستانة، وغربية وتحتها روما، والرابع يحتوى على تاريخ المملكة الغربية إلى يوم انقراضها بتواли هجمات المتربيين عليها، والخامس على تاريخ الدولة الشرقية ليوم دخول السلطان الغازي محمد الثاني العثماني الملقب بالفاتح الأستانة وجعلها عاصمة لدولة آل عثمان.

القسم الأول

من سنة ٧٥٤ ق.م. إلى سنة ٧٥١ ق.م.

تأسيس مدينة روما

لا بد وأن يكون أصل مدينة روما كأصل باقي مدن العالم؛ أي: بعض أكواخ حقيرة لصيادي الأسماك على ضفاف نهر (التبير)، ثم أخذت تكبر شيئاً فشيئاً كـما ارتفع سكانها في عالم التمدن إلى أن وصلت تلك الدرجة العلياء وصارت تلك المدينة الشماء التي تفاخر الشعراء في مدحها وتباري الكتاب في وصف مبانيها العمومية وحركتها العلمية والتجارية، لكن لما كان دأب كل أمة غمض أصل تاريخها أن تضع لنفسها تاريخاً وهميّاً كما تزيّنه لها مخيلتها فينتسب بعضها إلى جبابرة اشتهروا بالقوة والباس والبعض الآخر إلى بعض الملائكة أو النجوم أو إلى آلهتهم الخيالية ترفعاً عن عامة الأمم ولزيادة التأثير على عقول أفرادها، كذلك وضع مؤرخو مدينة روما الأولون الخرافات الآتية ناسبيين إليها تأسيس عاصمة دولتهم، ونحن ننقلها على علاتها مع عدم اعتقادنا بصحتها أصلاً كما يرى المطالع.

قالوا: إنّما خربت مدينة (طروادة) وصارت أثراً بعد عين هاجر منها (إينيه) مستصحباً معه ولده (اسكاني) وأصنام المدينة ونزل بساحل بلاد اللاتينيين، فأكرم ملكها المدعو (لاسيوس) وفادته وزوجه ابنته (لافينينا) وأقطعه أرضاً فسيحة بني فيها مدينة ودعاهما لافينيوم نسبة لزوجته، فصار حليفه ومن أهم أعوانه في حروبه مع مجاوريه، واستمر على ذلك مدة إلى أن اختفى في إحدى الواقع حرية فظن الأهالي أنه صعد إلى السماء وعبدوه باسم (جوبيتر انديجييت).

ثم ترك ابنه (اسكاني) مدينة (لافينيوم) لرداة موقعها وأسس مدينة (أليا) على جبل (البانو) أحد الجبال القائمة عليها مدينة روما، وبعد وفاته تعاقب عليها سبعة ملوك من نسله أعقب سابعهم ولدين (نوميتو) و(أموليوس) وكان الملك بحكم الوراثة لأرشدهم وهو الأول فلم يرق ذلك في عين أخيه (أموليوس)، بل استأثر بأغلب أملاك والده

ولم يترك لأخيه الأكبر إلا شيئاً قليلاً وقتل ابنه ووضع بنته (سلفيا) في أحد أديرة راهبات (فستا) حتى لا يعقب أخوه من يرثه في الملك وتنحصر السلطنة في أعقابه دون أخيه الأكبر، وبينما كانت سلفيا تدلي دلوها في إحدى الآبار المقدسة؛ إذ تجلى لها الإله (المريخ) ونفخ فيها من روحه فحملت ووضعت غلامين فقتلت بناء على قوانين راهبات (فستا) وألقي ولادها في نهر (التبر) فحملتهما أمواجه إلى أن رسيا تحت ظل شجرة فأتت ذئبة على صوتها وأرضعتهما على مرأى من أحد رعاة الملك عمهما واسمها (فستولوس)، فحملتهما الراعي إلى زوجته (اكالورنسيا) فدعنهما (رومليوس) و(ريموس) واعتنت بتربيتهما مع أولادها حتى بلغا أشددهما بين الرعاة، وتشاجرا ذات يوم مع رعاة أحد أغنياء القوم المسمى (نوميتور) فقادهما أمام سيده فأعجب بشجاعتهما وشدة تشابههما؛ ولذلك أخذ يبحث عن أصلهما وصحة نسبهما حتى وصل إلى الحقيقة وأعلمهم بها، فتألبا مع باقي الرعاة على عمهما (اموليوس) وقتلوه، وولوا مكانه على مدينة ألبه سيدهم (نوميتور) فأقطعهما قطعة عظيمة من الأرض على شاطئ نهر التبر فعزما على بناء مدينة عظيمة تكون لهما ولذرتيهما، لكنهما اختلفا في أيهما يقوم ببنائهما.

وبعد الجدال اتفقا على أن يصعد كل منهما على ربوة ومعه جماعة بصفة شهود ومن يرى منهما طيبوراً أكثر من الثاني يكون أحق ببناء المدينة، فرأى ريموس ستة عقابان ورأى رمولوس اثنى عشر، ولذلك تقرر أن يخط رمولوس أساس المدينة فعلق ثوراً وعجلة في محراث وشق به الأرض حول مرتفع (بالاتينو) علامة على سور المدينة الجديدة، وكان ذلك على ما جاء في كتب الرواية في ٢١ أبريل سنة ٧٥٤ ق.م. ثم أخذ في بناء السور، ولما ارتفع قليلاً وتب ريموس من عليه استهزأ فقتله ريمولوس بيده قاتلاً، فليمت هكذا كل من يجرئ على الاعتداء عليها، وقيل غير ذلك، لكن هذه الرواية هي المتفق عليها تقريرياً، ومن ذلك الحين صار رمولوس ملكاً منفرداً على مدينته الجديدة التي سماها (رومة) نسبة له وتخلidia لاسمه، وأباح الإقامة فيها لكل من لجا إليها من الأمم الأخرى من المدنيين الفارين من وجه العدالة، فتوارد المهاجرون إليها من كل فج حتى كثر عدد الرجال عن النساء زيادة عظيمة وامتنع المجاورون إليهم من مصايرتهم لكون أغلبهم من الأخلاط الذين لا خلاق لهم، فاضطر رمولوس إلى تدبير طريقة لتktثير عدد النساء، واتفق مع رجاله على دعوة القبائل المجاورة لهم إلى احتفال عظيم يقيمهونه إكراماً لأحد آلهتهم وسيبي بناتهم عنوة أثناء الاحتفال، فنجحت هذه الطريقة وتزوج جميع رجاله، ولما عاد أقارب المسيبيات لاستخلاص نسائهم وبناتهم ووقع القتال بين الطرفين توسيط

النسوة بين أزواجهن الرومانيين وأقاربهن ومنعن القتال وأصلاحن ذات بينهم، وبذلك زالت الكراهة والبغضاء من بينهم وساد الاتفاق وأخذت روما تخطو في سبيل التقدم بسرعة غريبة حتى سعى مجاوروها إلى محالفتها وتعاهد (تيتوس) ملك السابيين مع روملوس على محاربة أعدائهم.

ويروى أن إحدى الرومانيات واسمها (نزيبيا) لما رأت السابيين مقبلين أثناء الحرب وبأيديهم اليمنى أساور من ذهب عرضت عليهم أن تفتح لهم أحد الأبواب إذا أعطوها ما بأيديهم اليمنى فقبلوا، وبعد أن فتحت لهم الباب ألقوا عليها الدرق الحديد الذي كان بأيديهم فماتت فريسة خيانتها لوطنهما، ويغلب على الظن أن هذه الحادثة موضوعة إظهاراً ل بشاعة خيانة الوطن، وأن العدو الغالب يلطف خائن وطنه لفظ النواة بعد أن يستعمله آلة لنفاذ أغراضه؛ إذ لا ير肯 عاقل لمن خان وطنه الذي تحض جميع الشرائع على محبته والتغافلي في الدفاع عنه.

هذا؛ وبعد ذلك بخمس سنوات قتل تيتوس ملك السابيين فاختاروا روملوس ملكاً عليهم، وانتصروا باتحادهم على معاديهم من الأمم المجاورة، وعلا شأن روملوس بين الأهالي حتى توجس أعيانهم خيفة منه وخشوا أن يستبد فيهم فقتلوه وأشاروا أنه صعد إلى السماء على عربة إلههم المريخ في وسط الرعد والبرق، فصدق العموم هذه الرواية لسذاجتهم وعدوا روملوس من ضمن آلهتهم العديدة وعبدوه باسم (كويرينوس) وكان موته في سنة 715ق.م.

الملك نوماپونبليوس

لم يتفق الرومانيون والسبانيون على انتخاب خلف لرومروس، واستمر هذا الشقاق مدة سنة كان الأمر في خلالها لأعضاء مجلس الأعيان (سناتو) بالتتابع، وأخيراً انفقت الأمة على أن يكون حق الانتخاب للرومانيين بشرط أن لا ينتخبوا إلا سابيئاً فانتخب (نوماپونبليوس) وكان رجلاً محباً للسلم لم تحصل في أيامه حروب مطلقاً، بل صرف مدة حكمه الذي استمر ثلاثة وأربعين سنة في تشجيع الزراعة وتحديد الأطيان حتى لا يتنازع التجارون ومنع تمثيل معبداتهم بأصنام، وحرّم قتل ابن آدم قرباناً لهم كما كان جارياً قبلًا، ورتب الاحتفالات الدينية وعين وظائف الكهنة والمنجمين، وأصلاح نظام راهبات (فستا) اللاتي كن ينتخبن من بنات أشرف العائلات لحفظ النار المقدسة ومداومة إشعاعها حتى لا تطفأ أبداً والمحافظة على (البلاديم) الذي أتى به (انيه) من تروادة.

ولحبه في السلم ومقته للحرب أقام معبداً (ليانوس) إله السلم تفتح أبوابه وقت الحرب ويغلق وقت السلم، فلم تفتح في أيامه مطلقاً، وكان يعتقد الرومانيون أن له صديقة من الجن تدعى (ايجريري) تساعده بالأفكار الصائبة وتتحي إلىه بالأعمال المفيدة.

وينسب إليه إصلاح السنة الشمسية التي كانت قبله من عشرة شهور فقط، فضبطتها وجعلها اثنى عشر شهراً تابعة لدورة الأرض حول الشمس لانتظام مواعيد الزراعة، ولا يعلم من تاريخه غير ذلك وتوفي سنة 672 ق.م.

وذهب بعض المؤرخين الحدثيين مثل بوفور الفرنساوي ونبيور الألاني إلى أن هذا الملك لم يوجد إلا في مخيلة مؤرخي الرومان، وأنه لم يحكم روما ملك بهذا الاسم، بل إن اسمه يمثل فقط دور التشريع والتقوين في أول عصر الرومانيين، واستندوا في قولهم هذا على أن اسم نوما مشتق من الكلمة اليونانية نوموس ومعنىها الشّرع أو القانون.

وبعد وفاة نوما پومپليوس انتخب الأهالي تلوس هوستليوس ملّاكا عليهم، وكان يعكس سلنه محباً للحرب وشن الغارة على مجاوريه لسلب الماشية والأمتعة واغتصاب الأرضي إلا أنه كان ميالاً لمساعدة الفقراء من الأهالي، فكان يقسم عليهم أراضي القبائل التي تدور عليها رحى الحرب، وأخيراً حصلت بينه وبين سكان ألبه عدة وقائع صغيرة أصلها اختطاف بعض الماشي والتعدي على الحدود أوجبت إشهار الحرب، لكن لما كانت علاقات المودة بين مدينتي روما وألبه قديمة جداً وكانت مدينة روما في الأصل مستعمرة لمدينة ألبه كما سبق لم يرغب تلوس هوستليوس بإيقاد نيران الحرب بين أهالي المدينتين، بل ارتأى أن ينوب عن كل فريق ثلاثة أبطال يتبارزون معًا، ومن يفوز مندوبوها بالفوز والنصر تكون هي الغالية، فانتخب الرومانيون ثلاثة إخوة من عائلة (هوراس) والأليبيون ثلاثة من عائلة (كورياس)، وفي أثناء المبارزة قتل اثنان من مندوبي روما، وبقي الثالث حافظاً لجميع قوته أمام مندوبي ألبه الثلاثة الذين كانوا أثخناوا بالجراح، فأخذ مندوب روما في العدو مظهراً الفرار أمام أعدائه الثلاثة فتباعدوه، ولما تباعدوا عن بعضهم عاد إليهم فقتلتهم الثلاثة بالتتابع، وبذلك تم الظرف للرومانيين على الأليبيين.

ومما رواه بعض قدماء المؤرخين نقلاً عن السلف أن أخت الهوراس مندوب روما المسماة (كاميلية) كانت مخطوبة لأحد مندوبي ألبه الذين قتلوا، فأخذت تبكي وتتنحّب على موته فغضب عليها أخوها ووبخها على البكاء وقتها بيده، ولم تمنعه الحمية الأخوية عن إتيان هذا الأمر العظيم تغافلاً في حب الوطن والدفاع عنه فحكم عليه بالإعدام على هذه الجريمة، لكن تجمهر الأهالي وطلبوا العفو عنه نظير خدمته لوطنه وأهله وفوزه على أعدائه فعفي عنه، ويظهر لي أن هذه الرواية من الأقايسص الموضوعية إظهاراً لقوة حب الوطن ووجوب تغلبه على ما عاده من الإحساسات الشريفة، وتضحية كل غالٍ ولو كان من أقرب الناس إلى الإنسان في سبيل خدمته الشريفة.

ولقد اتخذ راسين الشاعر الفرنسي المفلق هذه الحادثة موضوعاً لإحدى رواياته المحزنة ترجمت إلى جميع اللغات، لكن لا أظن أنها نقلت إلى اللغة العربية لآن، وبعد ذلك تحالفت مدينتا روما وألبه بشرط أن تكون السيادة لروما على الأخرى، لكن لم يستمر هذا التحالف إلا قليلاً؛ إذ كانت ألبه تضمر العداء لروما وتنظر الفرصة المناسبة للحصول على الاستقلال التام، وظهر ما تكهنه ألبه من العدوان في أثناء محاربة جرت بين الرومانيين وبعض القبائل المجاورة فلم يساعد أميرها حلفائه، بل تربص ينتظر نتيجة القتال حتى إن دارت الدائرة على الرومانيين انقض عليهم وساعد أعدائهم، إلا أن

فأله لم يصب فانتصر الرومانيون وانتقم توليوس هوستليوس من أمير آلبه بالقتل نظير تزبدبه وعدم إخلاصه وخرّب مدینته، فصارت أثراً بعد عين ونقل سكانها إلى أحد أحياء رومة واستمالهم إليه بأن قبل أشرفهم في مجلس الشيوخ وأغنياءهم في زمرة الشوالية، وسيأتي شرح امتيازات هذه الفئة في موضعه.

ولم تكن هذه الواقعة آخر محاربات هذا الملك، بل حارب كثيراً من القبائل وانتصر عليها نصراً مبيناً في وقائع متعددة حتى صار لرومة المقام الأسماى بين المدن المجاورة وخشيتها القريب والبعيد.

وينسب للملك المذكور عدم الاعتناء بأمور دينه وعدم اتباع أوامره واجتناب نواهيه وإهمال عبادة الأصنام المعتبرة لدى قومه، ولذلك يدعى الرواة أنه استحق غضب معبوداته فأنزلت عليه الصواعق المحرقة أهلكته ودمرت قصره تدميراً، ولم يوقف لجنته على أثر، وكان اختفاءه أو موته في سنة ٦٤٠ قبل الميلاد.

الملك أنكوس مارسيوس

وولي بعده (أنكوس مارسيوس) ويقال إنه حفيد نوما پومپليوس ثاني ملوك الرومان، وكان مثل جده ميلاً للسلم محباً للسكنية التي تساعد على تقدم أسباب العمران ونمو الزراعة والصناعة، فنشط الزراعة ونقش القوانين المعمول بها على ألواح وعلقها في محل اجتماع الأهالي المسمى بالفوروم وأعاد ما اختل من نظام عبادتهم في عهد سالفه، وشدد في مراعاة قواعده لتحققه أن الدين مهما كان فاسداً ضروري لکبح جماح الأهالي ومنعهم عن الإخلال بالراحة العمومية لأمره بإطاعة ولاة الأمور والرضوخ لأوامرهم.

لكن لم يمنعه حبه للسلم من الحرب والقتال خصوصاً مع اللاتين الذين نكثوا المواثيق وخانوا العهود، فاضطر لحاربهم وإقامعهم بعد قتال عنيف، ولما فاز عليهم بالنصر البين دمر أربعة من مدائنهم ونقل سكانها إلى رومة وأسكنهم على مرتفع (افانتن) فاتسعت المدينة اتساعاً عظيماً، وأقام أول جسر (كوبري) على نهر التبر وحرف مينا (اوستيه) لتسهيل التجارة ونقل البضائع إلى رومة فاتسخ العمار وكثرت المساكن على الشاطئ الأيمن، والتزم (أنكوس) أن يقيم حصناً منيعاً على مرتفع (جانيكول) لحماية الجسر وصد غارات العدو عنه وخذ خندقاً عميقاً لمنع كل عدو مهاجم يحيط بجميع المساكن القائمة على الشاطئ الأيمن، ولما كثرت أهالي المدينة بسبب إقامة الآلبين وسكان مدائن اللاتين الأربع وكثير ارتكاب الجرائم وتعدد التعدي على الأموال والأرواح بسبب اختلاف الأجناس واختلاطهم أنشأ (أنكوس) سجنأً تحت الفورم لمرتكبي الجرائم الكبيرة، وبالاختصار نمت المدينة وارتقت في أيامه وعلا شأنها واشتهر اسمها وتوفي سنة 616 قبل المسيح.

الملك تر كان الأول

وفي مدة ملكه أتى المدينة رجل أجنبي من أهالي (كورنث) ببلاد اليونان هجر أوطانه وترك خلانه مع أبيه (ديماراث) هرباً من استبداد عائلة (سيپسيلاوس) واستوطن مدينة (ترگرينيه) إحدى مدن الأتروسك، ثم ارتحل عنها إلى مدينة روما ولشدة ذكائه وقوته دهاه استعمال إليه الملك أنكوس والأمة الرومانية حتى جعله الملك وصيغاً على أولاده من بعده، وانتخبه الأهالي ملكاً عليهم بعد وفاته، واشتهر في التاريخ باسم (تركان) نسبة للبلد التي أتى منها إلى روما ولقب بالقديم، وفي أيامه ازدادت روما بهجة وبهاءً وحسناً ورواءً فجفف أرض (الفورم) حيث كانت تغمره مياه التبر أيام فيضانه وطغيانه وأحاطه بأروقة جميلة على أعمدة ظريفة وخصصه لجتماعات الأهالي العمومية سياسية كانت أو مختصة بالأعياد وأوقات الملاهي، وأحاط المدينة على اتساعها بسور منيع من الحجر الصلد أدخل ضمنه جميع المباني الحديثة لتكون في أمن من كل طارئ، وابتدأ في بناء (الكابيتول)^١ ومهد أرض محل المعد للألعاب الرياضية على اختلاف أنواعها (سرك)، وغير ذلك من الأعمال الجسيمة ذات المنفعة العامة خصوصاً المجرى العظيمة التي بناها تحت المدينة لتصريف أقدارها والباقي آثارها إلى الآن تشهد لبنيها بعلو المدارك وارتفاع الشان.

ولقد استعان على تتميم هذه الأعمال العظيمة بما أخذه في حروب العديدة مع السabin واللاتين من الأموال الطائلة والغنائم الهائلة، وتغلب أيضاً على أمة (الاتروس) ^(CAPUT)

^١ قلعة عظيمة أقيمت على مرتفع عالٍ لحماية المدينة، وكان بها معبد للمشتري أكبر آلهة القوم ويقال إن اسمه مشتق من كلمة CAPUT (رأس) ومعناها الرأس أطلق عليها بسبب وجود رأس إنسان في أحد جدرانه عند الاحتفال بوضع أساسه.

التي كانت أرقى من الأمة الرومانية في سلم التمدن، ولما كانت القاعدة التاريخية أن الأمة الغالبة تتبع بعوائد الأمة المغلوبة وتتخلق بأخلاقها إذا كانت أرقى منها حضارة وأرفع تمدداً اقتبس الرومانيون من الاتروسكي عوائد كثيرة؛ منها المراكب الانتصارية التي كان يحتفل بها عند عودة الملك إلى المدينة عقب انتصاره على الأعداء، فكان يدخل المدينة لابساً الحلة الأرجوانية والنجوم مزركشة عليها راكيماً عربة تجرها أربعة من الخيول البيضاء، يتقدمه حملة البلاط المربوطة حول يدها العصي علامة على السلطة والقوة، وبعد أن حكم نحو أربعين سنة تأمر أولاد أنكوس الملك السابق على قتله انتقاماً منه على اختلاسه الملك، فأوزعوا إلى اثنين من الرعاة بالظهور بالمشاجرة قريباً من قصر الملك حين وجوده به حتى إذا استدعاهما أمامه قتلاه، وقد تم الأمر كما اتفقا عليه وأراداه وضرب أحدهما الملك بالآلة قاطعة قاتلة فشح رأسه ومات لحيته.

الملك سرفيوس تليوس

لكن أخفت امرأته (تاكوبيلا) التي كانت مشهورة بالسياسة والدهاء خبر موته وأذاعت أن الملك جريح فقط وحالته ليست خطرة، وأنه كلف صهره (سرفيوس تليوس) بإدارة مهام الحكومة ريثما يتم شفاؤه، وبعد مضي بضعة أيام على هذه الحادثة استمالت في خلالها أعضاء السناتو إلى قبول صهرها بصفة ملك، أعلنت وفاة زوجها ولم تف ذلك المكيدة أولاد الملك (أنكوس) شيئاً، وكان ذلك سنة 578 ق.م. تقريباً.

ومما ينسب عمله إلى تركان من الإصلاحات أنه قرر بقبول مائة شخص من عامة الأهالي في مجلس السناتو، وزيادة زمرة الشفالية ثلاثة فرق، ولما لامته الأشراف على ذلك استعن على أقناعهم بقوة المنجمين الذين قالوا إن الآلهة راضية عن هذا الإصلاح فامتثل الأشراف، وصارت أقوال المنجمين أكبر عضد للحكومة لتنفيذ مشروعاتها كلما أنسى معارضه من بعض طبقات الأمة.

هذا، أما (سرفيوس تليوس) فلم يعلم أصله بالتحقيق فقال بعضهم: إنه لقيط تربى في السراي الملكية في مهد العز والدلل، ولما ترعرع وگلت تربيته إلى فحول ذاك العصر ولما بلغ سن الرجولية زوجه الملك ابنته إجابة لرغبة زوجته (تاكوبيلا) وقال آخرون وخصوصاً مؤرخو (التسكان): إنه أتروسكي الأصل واسمها (مسترنا)، وإنه كان مرافقاً لأحد قواد جيوش الأتروسك عند محاربة الرومانيين، ولما غلبت جيوشهم أتى إلى رومية مع من هاجر من الأتروسك وترك اسمه الأصلي وتسمى باسم سرفيوس وهو من أسماء الرومانيين حتى يظن أنه روماني ولا يعلم أصله الأجنبي وقيل غير ذلك.

ومن أعماله تجديد أسوار المدينة وإدخال كثير من ضواحيها داخل أسوارها، وتقسيمتها إلى أربعة أقسام لكل منها حاكم مخصوص يناظر به تحضير القوائم بأسماء الأهالي القاطنين في دائرة لتوزيع الضرائب، وطلب من يلزم من الشبان للخدمة العسكرية،

ثم قسم جميع الأراضي التابعة لمدينة روما إلى ٢٦ قسماً، وجميع السكان إلى ستة طبقات (١٧٣) فرقة أو قبيلة كل قبيلة منها مؤلفة من مائة نفس؛ الأمر الذي يستنتج منه أن عدد الأهالي التابعين لروما بلغ في أيامه (١٩٣٠) نسمة، وسيأتي ذكر ذلك مفصلاً في الباب التالي.

ومن أعماله الخارجية تحالفه مع ثلاثين مدينة من مدائن اللاتين وإقامة معبد للمعبودة (ديانة) إحدى آلهة الأقدمين بداخل روما، وتقاسمت المدينة ومحالفيها من مدائن اللاتين ما صرف عليه ليكون رابطة اتحاد بينها، ومنها تغلب على بعض قبائل الأنطروسك وأخذه أراضيهم وتوزيعها على الفقراء من الرومان، ولما كانت جميع أعماله في صالح الطبقات السفلية من الأهالي غضب منه الأشراف ذوي الثروة والجاه وضاعف غضبهم وحذفهم عليه توزيعه الأراضي على الفقراء، وصاروا يمقتون بقاءه ملگاً عليهم وتأمروا على قتله بمساعدة بنته (توليه).

وتفصيل ذلك أنه كان سرقيوس ابنتان إداحاما توليه التي حفظ التاريخ اسمها وكانت ميالة إلى الفتنة والدسائس وحب العلو والارتقاء مما كانت الواسطة، وتزوجت (آرانس) ابن الملك تركان القديم، وكان متصرفًا بالسكنون وسهولة الأخلاق وتزوجت الأخرى بلوسيوس أخا آرانس الذي كان على عكس أخيه ونقشه، ولما كان شبيه الشيء من جذب إليه بالطبع اتفقت (توليه) مع بلوسيوس زوج اختها على قتل زوجها وأختها والاقتران معًا، والسعى بعد ذلك في تنصيب بلوسيوس ملگاً على روما مكان أبيها، ولو أدى الأمر إلى قتلها، وفعلاً اقترنرت بلوسيوس بعد أن تخلصت من زوجها وأختها بتقديمها لهما السم في الدسم، ثم اتحدت مع بعض الأشراف المعادين لأبيها الملك بسبب منحه بعض الحرية للأهالي وتوزيعه أراضي القبائل المغلوبة عليهم بدل توزيعها على الأشراف، واتفقوا على عزله وتوليه بلوسيوس مكانه، وبعد تمام الاتفاق وتوثيقه بالأيمان المغلظة انتهز المتأمرون فرصة وجود الأهالي في أشغالهم الزراعية خارج المدينة، وحضر بلوسيوس إلى السناتو حال انعقاده متsshًا بالملابس الملوكية وألقى سرقيوس من أعلى الدرج فقتله أعنانه، ونودي بلوسيوس ملگاً باسم تركان الثاني ويقال: إن زوجته (توليه) حين أتت لتهنئته مرت بعربتها على جثة أبيها وكان ذلك في سنة ٥٣٤ق.م.

ولقد دعا الرومانيون الطريق الذي مرت منه هذه الغادرة عند ارتカابها هذا الأمر الفظيع بطريق الخيانة؛ إظهاراً لعدم استحسانها له وعدم مشاركتها لها فيه.

الملك تر كان الثاني

وكان تر كان الثاني ميالاً للكبراء والجبور محبًا للظلم والاضطهاد، فأبطل جميع الإصلاحات التي أدخلها سرقيوس وسلب طبقة العوام ما منحته من الحقوق فرجعت إلى ما كانت عليه من الضعف والانحطاط، ولذلك لقبه الأهالي بالشامخ وأظهروا له الجفاء والإعراض فاتخذ لنفسه حرساً من الأجانب استخدمهم لقمع الأهالي وإطفاء كل حركة تبدو منهم طلباً للحرية والتخلص من حكمة الجائز.

وكان يقتل كل من آنس منه عدم الإخلاص له والرضا عن أعماله من الأعيان وأعضاء مجلس الشيوخ، واتبع هواه في جميع أعماله، ولم يراع القانون حرمة ولم يخفر لأحد ذمة وسخر الأهالي في أشغاله الخصوصية والمنافع العمومية فتم مجارى المدينة والكابيتول وبباقي ما شرع فيه والده من الأعمال، وتحالف مع حاكم مدينة (تسكولم) وزوجه ابنته ليكون له عوناً وعنصراً ضد رعاياه ويقال إن العملة عثروا عند فتح أساسات (الكابيتول) على رأس إنسان فقال المنجمون: إن ذلك يدل على أن مدينة روما ستكون ذات شأن عظيم في العالم، وتكون مقر حكومة يمتد سلطانها على جميع أنحاء العالم المتمدن.

وفي عصر هذا الملك حضرت إلى المدينة إحدى المتكهنات المدعيات معرفة الغيب وقدمت له تسعه مجلدات مدعية إنها تحتوي على بيان كل ما يستحدث لمدينة روما من الحوادث، وطلبت منه في مقابلتها مبلغاً عظيماً فرفض فأحرقت ثلاثة منها وعرضت عليه الستة الباقيه بنفس القيمة، فرفض ثانيةً فأحرقت ثلاثة أخرى وعرضت عليه الثلاثة الباقيه نفسها فقبل ووضعها في خزانة خصوصية بنيت لها تحت الكابيتول وعين لحراستها اثنين من الأشراف، وهذه الخرافه تشبه ما يدعوه البعض في زماننا هذا زمن البدع والغرائب من وجود كتب يسمونها (الجفر) يقولون: إنها تنبئ بالمستقبل ويصدقهم بسطاء العقول وصغار الأحلام.

ومن أعمال تاركان الشامخ أنه حارب كثيراً من مجاوريه وانتصر عليهم خصوصاً قبائل (الفولسك) وشدد ربط الاتحاد مع مدائن اللاتين وجعل لرومة – وبعبارة أخرى لنفسه – سيطرة شديدة عليها وفتح مدينة (جانس) بواسطة أكبر أولاده (تاركان سكستوس) وذلك أنه تظاهر بالعصيان على والده واحتدى بهذه المدينة، وأقام بها حتى استمال في خلالها الأهالي بحسن المعاملة وبذل العطايا حتى اختاروه حاكماً عليهم، ولما تم له الأمر أرسل لوالده يسأله عما يفعله لتوطيد سلطته وتسليم المدينة إليه، فوجد الرسول والده يتمشى في بستان، وبعد أن سمع ما كلف بت比利غه إياه أخذ يقطع الأزهار المرتفعة عما جاورها بعصابة كانت بيده، ثم قال للرسول: عليك بت比利غ ما رأيت لولي فإن فيه الجواب الكافي والرأي السديد.

ولما نقل حديث هذا الدور التمثيلي إلى سكستوس أدرك أن والده ينصحه بقتل أعيان المدينة، وكل من يظن فيه المعارضة، فأمر بقتالهم وسلم المدينة لوالده غنيمة باردة. وكان تاركان فظاً غليظاً سيئ الخلق ظالماً مستبداً لا يقر كبيراً ولا يرحم صغيراً ولا يحترم أميال الأمة ولا آراء نوابها وشيوخها فنفر منه الأهالي، ولم تبق لهم طاقة على احتمال هذه المعاملة وصاروا يتربون الفرص المناسبة للتخلص منه، ولا يتكون طريقة لبث شكوكاً لهم وإظهار تمللهم، وزاد غيظهم منه ومقتهم له حين تطاول ابنه سكستوس إلى اغتصاب (لوكريسييا) زوجة تركان كوللاتان ابن أخي الملك فساعدته الأهالي على الانتقام منه وطرد الملك تركان الشامخ وإسقاط الحكومة الملكية وتأسيس الحكومة الجمهورية.

القسم الثاني

الحكومة الجمهورية

وتفصيل ذلك على ما جاء في كتب أشهر المؤرخين أن (تاركان) كان يحاصر مدينة (أرديا) عاصمة قبيلة (الروتول) الواقعة على بعد ثلاثين كيلومتراً من مدينة روما ومعه أولاده وكثير من النساء، وبينما كان الأباء مجتمعين ذات ليلة في السمر إذ دارت المناقشة بينهم في صفات زوجاتهم، وأخذ كل منهم يعدد محسن زوجته المادية والأدبية ويدعى أنها تفوق زوجات الباقيين في الشئون المنزلية والترتيبات العائلية، ثم اتفقوا على أن يفاجئوهن في محادعهن ليروا كيف يصرفن أوقاتهن فقاموا بوقتهم وفاجئوهن فوجدوهن مشتغلات بالملاهي والمغاني إلا (لوكريسييا) زوجة (تاركان كوللاتان) فإنها وجدت مشغولة بالغزل مع خادمتها، فأجمع الحضور على أنها أعقل الأميرات، وأكثرهن التفافاً إلى أشغال بيتها، فاغتاظ (سكتوس) وأضمر لها السوء وتربص لها حتى إذا وجدها بمعزل عن عيون الرقباء انقض عليها كالعقواب واغتصبها كرهًا، فجمعت زوجها وأباها وأخا زوجها (بروتوس) وغيرهم وقصدت عليهم ما حصل لها من الإهانة تفصيلاً، ثم قالت: إن لا حياة لها في هذا العالم بعد ما لحقها من العار بفعل هذا الوحش الكاسر واستلت خنجراً وطعنت نفسها به طعنة كانت القاضية فقضت نحبها شهيدة العفاف موصية زوجها بالأخذ بثأرها.

فحمل زوجها جثتها إلى روما وعرضها على أعضاء مجلس الشيوخ وأنظار الأمة طالباً منهم الانتقام للشهامة والعفاف من أصحاب الغدر والخيانة، فمالوا لجانبه واتحدوا على عزل الملك وطرده هو وولديه من المدينة تخلصاً من ظلمه واستبداده الذي أُنقذ كاهم الأهالي بالضرائب والمغارم وحملهم ما لا طاقة لهم على حمله من أنواع التسخير والاستعباد، فاجتمع مجلس الشيوخ (سناتو) وقرر بإبطال الحكومة الملكية ونفي الملك.

وفي أثناء ذلك قصد (بروتوس) الجيش المهاجر لمدينة (أرديا) وأهاجه على الملك فشق العساكر عصا الطاعة وتركوا حصار المدينة، ولما بلغ تاركان خبر ثورة الأهالي عاد مسرعاً إلى مدينة روما فوجد أبوابها مؤصلة في وجهه، ولما أعيته الحيل ولم يجد له بين الأهالي نصيراً، بل وجد الكل ضدّه يدّاً واحدة وقالباً واحداً طلباً للحرية والاستقلال التجأ إلى مدينة (سيره) هو وولده آرنس وسكتوس سبب جميع المصائب التي لحقت بهم.

وبعد ذلك طلب الأهالي الرجوع إلى القوانين العادلة التي وضعها سرفيوس تليوس، وأن ينتخب لإدارة شئون الحكومة اثنان من المشهود لهم بالحكمة والاستقامة، ويعطى لهم لقب (قنصل) فقبل مجلس الشيوخ بهذه الطلبات العادلة، واجتمعت لجان الانتخاب وانتخب ترakan كوللاتان وبروتوس، وتم هذا الانقلاب العظيم في سنة ٥١٠ ق.م. ثم توجس الأهالي خيفة من تاركان كوللاتان وداخلهم الريب من جهته فعزلوه ونفوه خارج المدينة وانتخبوا مكانه (فالريوس).

وقد تناقل المؤرخون خرافات يعللون بها تولي (بروتوس) على منصة الأحكام بعد تاركان الشامخ قالوا: إن هذا الملك لما أحس بعدم محبة الأهالي له وقلّ لهم له ظهر المجنّ أرسل ولديه إلى مدينة (دلفوس) ببلاد اليونان ليستشيرا متكهنتها على ما ستؤول إليه حاليه فتوجها ومعهما (بروتوس) وبعد أن أديا المأمورية سألوا الكاهنة عنمن سيخلف تاركان الشامخ في الملك، فأجابتهم بأن سيخلفه من يقبل أمه قبل الآخرين منهم، فأدرك (بروتوس) سر الجواب وسجد على الأرض مقلاً إياها إذ هي أم أولاد آدم المخلوق من الطين، ولذلك أخلف تاركان بعد نفيه دون ولديه وبعد أن التجأ ترakan إلى مدينة (سيره) تركها قاصداً مدينة تركويينيه لعدم مساعدة الأهالي الأولى له، فأرسلت تركويينيه ومدينة أخرى رسلاً يطلبون من روما إعادة ترakan إلى الملك أو بالأقل رد أملاكه وأملاك من هاجر معه إليهم، وفي أثناء المداولة في هذه الطلبات تأمر المتذوبون مع بعض أولاد الأشراف الذين لم يرق في أعينهم تمنع الأهالي بكامل حقوقهم، بل كانوا يفضلون خدمة ملك ذي أبهة وعظمة على التساوي مع جميع طبقات الأهالي في الحقوق والواجبات، فاتفقوا على إهاجه الطبقات السفلية من الأهالي على مجلس الشيوخ وإلزامه بقبول عودة الحكومة الملكية، لكن لم يتم قصدهم ولم تفلح مؤامتهم بسبب إفشاء بعضهم للسر، فقبض على المتأمرين ومن ضمنهم ولدي بروتوس نفسه وحوكموا بمقتضى قوانين البلاد، فحكم عليهم بالإعدام ولم تمنع بروتوس الشفقة الوالدية من تنفيذ الحكم على ولديه، بل فضل احترام القانون وحماية الوطن العزيز على تخليص ولديه الخائنين من عقاب استحقاه بعذرهما وخيانتهما.

وبعد ذلك منح السناتو عشرين يوماً للمهاجرين مع ترakan للعودة إلى روما بحث إن لم يعودوا في الميعاد المذكور تضم أملاكهم لجانب الأمة ووزعت أطيان ترakan على الأهالي فخص كل منهم سبعة أفدنة تقريباً، وبذلك ازداد تعلق الأهالي بالحكومة الجمهورية وصار لا يخشى من إصغائهم لوسائل التحزيب للملك ثانياً، وجعل السهل الواقع بين المدينة ونهر التبر الذي كان من أملاك ترakan الخصوصية ميداناً عمومياً تحت حماية إله الحرب وهو (المريخ) على زعمهم وسمى ميدان المريخ.

ولما تفلح مأمورية مندوبي هاتين المدينتين جهزتا جيشاً عمره لـإكراه الرومانيين على إرجاع الحكومة الملكية، فقابلهم الرومانيون خارج المدينة بثبات الأسد الذي يدافع عن عرينه والأمة التي تناضل عن استقلالها وتتفانى في الدفاع عن حريتها، واقتلت الجيშان طول النهار بدون أن يتم النصر لأحدهما، وإنفصالاً خيم الظلام وألقى عليهم سدوله، وفي أثناء المعركة قتل بروتوس محرر الرومانيين وآرسن أحد ولدي تارakan، ولما جن الليل خيل لأعداء روما أن هاتفاً ينادي بينهم أن موتاهم أكثر من موته الرومانيين فاذعنروا وولوا مدربين، فعاد الجيش الروماني إلى المدينة، ودخل القنصل فالريوس بموك انتصاري عظيم، ولبس نساء روما الحداد مدة سنة كاملة حزناً على بروتوس الذي دافع عن العفاف وصان الفضيلة بانتقامه للوكريسيا شهيدة الشرف والشهامة، وأقيم له تمثال نصب في الكاپيتول بجوار أنصاب الملوك السابقين التي احترمها الرومانيون بعد إلغاء الحكومة الملكية، ولم ينزلوها عن منصاتها لاعتبارهم إياها بمثابة أنصاف آلهة تبعاً لاعتقادتهم الفاسدة وتخيلاتهم الكاسدة.

وبعد هذه الخيبة استعان ترakan على الرومانيين بصاحب مدينة (كلوزيوم) إحدى مداشر الأتروسك المدعو (بورستاً) غير ناظر إلى ما يجره من ويلات الحرب ومصائبه على بلاده مفضلاً الاستعانة بالأجنبي لتمكّن رقاب الرومانيين على أن يراهم متمتعين بالحرية والاستقلال، فشن (پورستا) الغارة على مدينة روما بخيله ورجله سنة ٥٠٧ ق.م. ودخلها عنوة بعد أن بذل أهلوها من ضروب الشجاعة وفنون القتال ما لم يأته قبلهم أحد، لكن لم يُعِد إليها ملكها تارakan الخائن، بل امتلكها لنفسه، ولم تُثْبِد خيانة تارakan واستعانته بأعداء وطنه فتيلًا، وهكذا الحال في كل زمان ومكان فكتيرًا ما رأينا ونرى الملوك والأمراء خصوصاً في بلاد الشرق يستعينون بالأجانب ويستدعونهم لبلادهم لإخضاع أممهم ورعاياهم إذا هبوا مطالبين ببعض الحقوق أو الاشتراك في إدارة بلادهم، فيليبي الأجنبي دعوتهم فرحاً مستبشرًا، وبعد أن يcum الأهالي ويؤيد سلطة الحكم الجاهل

المستعين بهم يقوضون أركان سلطته شيئاً فشيئاً، ويستأثرون هم بالوظائف والنفوذ حتى إذا ساعدت الفرصة امتلكوا البلاد غنية باردة وطردوا من ظن فيهم خيراً، وفي ذلك عبرة لأولي الألباب.

هذا؛ ولقد ذكر (تيت ليث)^١ المؤرخ القديم عدة وقائع وإن لم تكن حقيقة إلا أنها شهد بشجاعتهم وإقدامهم لا فرق بين النساء والرجال فقد قال: إن (هوراسيوس كوكليس) قاوم بمفرده رجال (پورسنا) وصدهم عن أحد جسور التبر عندما كانوا قداصدين عبوره لدخول روما، وقاوموا مدة حتىتمكن الرومانيون من هدمه وعاد هو إلى المدينة سبحاً، وقال أيضاً: إن إحدى الرومانيات واسمها (كليلي) سلمت لهذا الملك بصفة رهينة فهربت لبلادها وعبرت النهر سابحة معرضة نفسها لنيل الأعداء، ولم تخش الموت تخلصاً من ربة الأجنبية، وإنها لما أعيدت إليه بحكم الضرورة اضطراراً أعجب پورسنا بثبات جأشها وقوتها جنانها وإخلاصها لوطنه فأطلق سراحها، وقال هذا المؤرخ في موضع آخر: إن أحد شبان الرومانيين واسمه (مورسيوس شقولا) تمكن من الوصول إلى سرائق (پورسنا) أثناء حصار مدينة روما قاصداً قتله فقتل أحد كتابه خطأ ظنّاً منه أنه هو الملك، ولما ضبط قال للملك بكل ثبات: «إني عالم بما سيحل بي من العذاب والقتل، لكن يوجد بالمدينة ثلاثة من الشبان متحالفون على قتالك» ثم وضع يده اليمنى في النار حتى احترقت قائلاً لها: «هذا جزاؤك على خطئك عدو أمري ووطني» وذكر حوادث أخرى غير هذه تناقلها المؤرخون إظهاراً لما وصل إليه حب الوطن والتهالك في الدفاع عنه عند هذه الأمة الحية.

وليث (پورسنا) برومة إلى أن ساقه طمعه لحاربة اللاتينين فانهزم أمامهم شر هزيمة، ولم يعد له جد على البقاء في روما لهياج الأهالي وتحققه من عدم قدرته على قمعهم لو هموا مطالبين باستقلالهم فأجلى عنها السلام.

لكن لم ترق هذه الحال في أعين ترakan، بل كانت فيها قذى وفي فمه شجي فأهاج قبائل السabin على روما معللاً النفس بالعودة إلى سابق مجده وتليid سلطانه فطروح الطيش بالسابين وهاجموا روما لا لإرجاع ترakan كما يظن كل جاهل يغتر بمساعدة

^١ مؤرخ روماني ولد سنة ٥٩ قبل المسيح وتوفي في سنة ١٩ بعد الميلاد، له تأليف عديدة أهمها تاريخ للرومانيين من عهد تأسيس روما إلى أيام الإمبراطور أغسطس مؤلف من مائة وأربعين جزءاً فقد أغلبها ولم يوجد منها الآن إلا ٣٥ جزءاً من الأول للعاشر ومن الحادي والعشرين إلى الخامس والأربعين.

الأجانب وإخلاصهم وصفاء سريرتهم، بل طمعاً في انتهاز هذا الشقاق لامتلاكه فخذلوا
وعادوا بخسران مبين سنة ٤٩٦ق.م.

وكانت هذه الموقعة هي الحاسمة إذ قتل فيها كثير من رؤساء الفريقين في مبارزات خصوصية كما كان الحال في حروب الجahلية عند العرب وقتل آخر أولاد ترakan وجرح هو أيضاً جرحاً بليغاً كان سبب وفاته، وبذلك ارتاحت مدينة روما ورسخت الجمهورية فيها أي رسوخ استمرت بعده إلى سنة ٢٨٤ق.م. حين اغتصب أغسطس قيصر الحكومة لنفسه وأسس الإمبراطورية الرومانية؛ أي إن الحكومة الجمهورية مكثت بروما مدة ٤٨٢ سنة امتد سلطانها في خاللها على حملة الأجزاء المعلنة من المسكونة في ذلك الزمان.

ولقد ينسب الرومانيون انتصارهم هذا على أعدائهم إلى تداخل الآلهة كما كان شأنهم في جميع الحوادث المهمة للتأثير على عقول الأهالي فقد ذكر في كتبهم أنهم نظروا شابين جميلي الصورة مرتفعي القامة راكبين على جوادين شاهقين في البياض يحاربان في مقدمة الجنود، وكانا أول من اجتاز حصن الأعداء غير مبالين بالشعب والنبل الموجه إليهم كالمطر فتبعهما الرومانيون، وتم لهم النصر بسبب شجاعتهما ولما بحث عنهم لتسليمهما المكافآت التي كانت مقررة لمن يجتاز حصن الأعداء لم يوقف لهما على أثر ثم ادعى بعضهم أنهم نظروهما يغسلان أسلحتهما وملبسهما من التراب والدم في إحدى أفنية المدينة، وقال الكهنة: إنها ولدا المشترى أكبر آلهتهم وأسموها «كستور» و«بولوكس»، ومن ذلك العهد أقيم لهما معبد في الفورم وخصص لها يوم يحتفل فيه بتذكر مساعدتهم للرومانيين في كل سنة واتخذهما الشفاليه الرومانيون حماة لطائفتهم.

نظامات الرومانيين الأولى

وحيث وصلنا إلى تأسيس الجمهورية وشرحنا الحوادث التي أدت إلى سقوط الملكية بالتفصيل مع ذكر خرافات القوم وأوهامهمرأيت قبل الشروع في بيان تاريخ الجمهورية أن آتي على شرح وجيز لترتيباتهم الداخلية ونظماتهم العمومية مع ذكر بعض عوائدهم المنزليّة والعائليّة؛ ليكون القارئ على بينة من جميع أمورهم وليقف وقوفاً تاماً على كافة أحوالهم، وإليك أيها القارئ بيان ذلك.

إن أول نظام وضعه روملوس لأهالي روما هو أن قسمهم ثلاثة فرق أو قبائل الأولى مؤلفة من رفقاء الأصلين الذين ساعدوه على تأسيس المدينة، والثانية من رجال تيتوس ملك السابلين الذي عاهد روملوس بعد القتال الذي وقع بينهما عقب اختطاف بنات السابلين وسبق ذكره في موضعه، والثالثة قيل: إنها مؤلفة من رجال أحد أمراء الأتروسك وأسمه (لوكومون) أتى إلى روما لمساعدة روملوس على بناء المدينة، لكن عدم تمنع رجال هذا القسم ببعض امتيازات القسمين الأولين وعدم وجود نواب عنهم في مجلس السناتو الذي سيأتي الكلام عليه حمل بعض المؤرخين على الظن بأنه كان مكوناً من سكان روما الأصلين الذين أتى روملوس في أول الأمر وأقام بين ظهرانيهم عنوة، وهذا الرأي هو الأقرب للصواب، وبقي هذا القسم في هذه الدرجة المنحطة إلى عهد تاركان فمنحه المساواة مع القسمين الآخرين في جميع الحقوق والواجبات، وكان لكل قسم أو قبيلة رئيس يلقب (تربييون) وكل قسم ينقسم إلى عشرة أقسام مؤلف كل منها من مائة نفس، ويسمى القسم المائيني ورئيسه يلقب (سانتوريون)؛ أي: رئيس المائة، وكل قسم مائيني ينقسم

إلى عشرة أقسام مؤلف كل منها من عشرة أنفس، ويسمى القسم العشري ويلقب رئيسه (ديكوريون)؛ أي: رئيس العشرة.

ومن جهة أخرى كان يوجد بكل قسم من الأقسام الثلاثة الأصلية أقسام ثانية تسمى (جنس)؛ أي: عشائر أو أجناس كانت كل واحدة منها ملائفة من أعضاء العائلة التي تربطهم روابط النسب والمصاهرة ومن ارتبط معها بروابط أخرى اجتماعية مثل رابطة التوارث لو مات رئيس العائلة عن غير وارث ولم يترك وصية، ويمكننا أن نسمي أعضاء هذا الفريق الثاني بالأتباع، فأعضاء العائلة المرتبطين معها برابطة النسب كانوا هم المتمتعين بجميع الحقوق المدنية والسياسية، ومنهم تكون طبقة الأشراف أو الأسياد دون أعضاء الفريق الثاني (الأتباع) الذين كانوا يفضلون الالتصاق بإحدى هذه العائلات بالتبعية ليأمنوا شر حوادث الزمان، وليكونوا في راحة بال ورغم من العيش متنازلين عن حقوقهم المدنية في نظير هذه الحماية، فكان السيد أو المتبع يعطي لكل تابع من أتباعه قطعة من الأرض ليعيش منها ويساعده فيما يكون له أو عليه من القضايا، وبعبارة وجيبة يعامله كما لو كان ولده، أما التابع فكان يجب عليه أن يتسمّي باسم العائلة التابع لها ويساعد متبعه على دفع الفدية لو أخذ أسيراً في الحرب، وفي دفع ما يحكم به عليه من الغرامات وفي أمهار بناته، وبالاختصار في جميع شؤونه ومصارفه العمومية والخصوصية، ولا يجوز له أن يساعد أو يعاون أحداً ضد متبعه السياسي، ولا يجوز للتابع أو المتبع أن يشهدأ ضد بعضهما أمام المحاكم أو يرفع قضايا على بعضهما إلى غير ذلك من الحقوق والواجبات المفصلة في كتب القوم وأسفارهم، ولما امتدت فتوحات الرومانين في عهد الجمهورية كما سيجيء امتد ظل هذه التابعية إلى أمم بأجمعها ومدن بجميع سكانها، وساعدت هذه الطريقة على استئثار نيران الحروب الداخلية؛ إذ كان كل سيد يدعى الرئيس لنفسه ويستعين بمتبعيه الذين لا يجدون مفرّاً من مساعدته.

وكان الأشراف يجتمعون بهيئة جمعية عمومية (كومسيو) للنظر في الشؤون المهمة وتقريرها بأغلبية الآراء، وذلك كوضع الشرائع وتقنين القوانين وإشهار الحرب وإبرام الصلح والتتعيين في الوظائف العمومية الرئيسية مدنية كانت أو دينية، أما الأشغال العادمة فكانت تتنظر في مجلس (الستانتو)، وهذا المجلس كان بمثابة جمعية استشارية لرئيس الحكومة الأعلى وهو الملك، وكان يؤلف السناتو أولاً من رؤساء العائلات السياسية فقط، ثم تغيرت كيفية تشكيله فيما بعد كما سيذكر في موضعه، وكان عدد أعضائه أولاً مائة

شخص ثم وصل مائتين بعد انضمام السابين إلى الرومانيين، وأخيراً ثلاثة في عهد تاركان، وبالختصار كانت الحكومة مشكلة بالكيفية الآتية:

أولاً: الملك وهو الرئيس الأعلى وكان يجمع في شخصه أكبر وظيفة دينية؛ إذ كان يعتبر بمثابة رئيس ديني كامبراطور الروسي وملكة الإنكليز الآن، وأكبر وظيفة في الجيش حيث كان قائده العام وأعلى وظيفة قضائية.

ثانياً: السناتو للنظر في الأمور العادلة والفصل فيها.

ثالثاً: الجمعية العمومية المؤلفة من جميع الأشراف (كوميسيوم) للنظر في المسائل المهمة التي لها تأثير شديد على نظام الحكومة.

وكان الملك يجلس كل تسعه أيام للحكم فيما يرفع إليه من القضايا، لكن لم يكن حكمه نهائياً بل كان قابلاً للاستئناف أمام الجمعية العمومية، ولما كانت لا تسمح له أشغله بنظر القضايا بنفسه كان يعين قاضيين يصدران الأحكام باسمه، وفي حالة الحرب تكون سلطة الملك مطلقة إطلاقاً كلياً خارج أسوار المدينة فقط، وهو الذي كان يعين أعضاء السناتو ويدعوهم للاجتماع في الأوقات المعينة كما يدعو الجمعية العمومية لعقد اجتماعاتها، وكان له حرس خصوصي مؤلف من ثلاثة فارس (شواليه) ينتخبون من أكثر الأهالي ثروة وأعزهم جاهماً، وكانوا هم القوة الراكبة؛ أي: السواري أثناء الحرب، وكان ينتدب في غيابه أحد أعضاء السناتو للقيام بمهام وظيفته، وأخيراً كانت الأمور المالية وجباية الأموال منوطة بموظفين مخصوصين من اختصاصاتهم الحكم في مسائل التعدي على الأنفس أو الأموال، فيرى القارئ من هذا الترتيب أن هذه الأمة بلغت مع حداثتها شأوا عظيماً من حسن الانتظام وتمام الترتيب، وكانت حكومتها جمهورية تقريباً حيث لم يكن للملك فيها سلطة استبدادية، بل كان الملك ملوك أوروبا المقيدين الآن بنظمات عمومية كملك إيطاليا وملكة الإنكليز وغيرهما، ولو لا تجاوز ترakan الشامخ حدوده وعدم احترامه للدستور ونبذه أراء السناتو ظهرياً لما سقطت الحكومة الملكية واستبدلت بالحكومة الجمهورية البحتة.

ثم تأتي طبقة العوام المؤلفة من الأمم التي أخضعها الرومانيون وألزموهm بالإقامة حول المدينة والأخلاظ الذين أتوا إليها للالتحام بها، وهذه الطبقة كانت مجردة من جميع الحقوق المدنية والسياسية كالانتخاب والتبني والوصية بعد الموت وغير ذلك من الحقوق التي كانت مخولة للرومانيين، وكان لا يجوز لهؤلاء العوام الدخول في العائلات

الشريفة أو الارتباط معها بالصاهرة إلا أنهم كانوا من جهة أخرى أحراراً في تصرفاتهم لا يخضعون لأحكام السناتو أو الجمعية العمومية، بل كانوا تابعين للملك رأساً وينتخبون قضاة من بينهم للفصل في قضيائهم الخصوصية، وكانت أهم أشغالهم الزراعة والتجارة لعدم اشتغالهم بالأمور السياسية وتفرغهم لأعمالهم الخصوصية، واستمرت هذه الطبقة من الأهالي في هذه الحالة من العزلة والانحطاط السياسي حتى خولت لها جميع الحقوق الرومانية في عهد الملك (سرقيوس) وصاروا كباقي الرومانيين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم.

وقد فعل ذلك لما آنس الكراهة والبغضاء من الأشراف، فأراد إضعاف سطوتهم وتقليل نفوذهم، فجمع أهالي هذه الطبقات السفلية النازلة خارج المدينة وأنزلهم على مرتفع (أفانتان) داخل أسوارها ومنهم الحقوق والامتيازات، ثم أبطل تقسيم الأهالي إلى طبقات تبعاً للحسب والشرف، وقسمهم تقسيماً جديداً جعل أساسه الثروة والغنى، وللوصول إلى ذلك أحصى تعداد الأهالي من أشراف وغيرهم وثروة كل فرد منهم بأن يأتي كل منهم إلى الموظف المنوط بذلك ويقسم إنه يقول الحق ثم يملي اسمه واسم عائلته وسنه ومقدار ثروته مع ما تساويه عقاراته، وكان جزء من يرتكب غشاً أو تدليسًا حرمانه من حريته أو مصادرته في الأموال أو قتله حسب الأحوال، وقرر عمل مثل هذا الإحصاء كل خمس سنوات.

ولما تم الإحصاء وعلمت درجة كل إنسان من الغنى أو الفقر، قسم الأهالي إلى ست طبقات غير متساوية وخصت الطبقات العليا منها بأوفر قسم من الضرائب بحيث كان نسبة الضرائب إلى الثروة تزداد من طبقة إلى أعلى منها (وهذه الطريقة هي التي تسمى الآن في علم الاقتصاد السياسي بالضريبة التدرجية، بمعنى أن من يكن إيراده ألف قرش مثلاً يدفع واحداً في المائة ومن بلغ إيراده عشرة آلاف قرش يدفع اثنين في المائة وهلم جراً بكيفية منتظمة)، وبهذا الترتيب الذي يدل على توقد ذهن واضعه اختلط الأشراف الأصليون بمن دخل حديثاً في الجنسية الرومانية، وتفرق كل الأشراف وضعفت شوكتهم خصوصاً وقد حمل سرقيوس الطبقات العليا أكثر مصاريف الحروب وخصهم بأخطر موقع القتال.

ولما كان هذا التقسيم الجديد مبنياً على الثروة، وكانت الثروة من طبيعتها قابلة للنمو والاضمحلال تبعاً لاجتهاد وحمل مالكها كان من الممكن لكل إنسان الانتقال من طبقة إلى أرقى بجهد واجتهاده كما هو حاصل في هذا العصر ببلاد الإنكليز حيث يعطي لقب لورد لكل من امتاز في فن أو علم أو خدم وطنه خدماً جليلة أو أخرى في التجارة أو

غيرها، فتتجدد طبقة الأشراف في إنكلترا بدخول عناصر جديدة فيها تعيد إليها ما تفده من القوة الحيوية بتلاشى وانحلال بعض العائلات القديمة.

ومما يذكر لهذا الملك العادل من الأعمال التي تخلد له حسن الذكر وطيب الأحداث مدى الدهر أن أبطل العادة القديمة التي كانت تجعل المدين المعاشر رقيق دائن حتى يوفي ما عليه، وجعل حق الدائن على مال المدين ليس إلا كما هو الحال الآن في جميع شرائع الأمم المتقدمة، لكن لسوء حظ الرومانيين أبطل ترakan الشامخ هذا القانون وأعاد الطريقة القديمة مع ما فيها من مخالفة العقل والعدل والذوق السليم، ولم يتحصل الرومانيون على إبطالها ثانية إلا بعد جهاد ونضال استمر نحو مائة سنة، وبالختام كانت أيامه أيام سعد ورفاهية وعدل وإنصاف بما وضعه من القوانين العادلة وسنه من الشرائع التي تشهد له بعلو الإدراك وكرم الأخلاق، ثم لما أتى به تاركان الشامخ هدم ما أسس وأفسد ما أصلاح وسلب طبقة العوام جميع ما منحها سرقيوس من الحقوق والمزايا التي جعلتهم كجميع الرومانيين أعضاء جسم واحد لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وأبطل كيفية تقسيم الأهالي إلى طبقات بنسبة ثروتهم، وأعاد النظام القديم القاضي بتقسيمهم إلى أشراف وعوام، فكان كالساعي إلى حتفه بظلفه إذ بغضه العوام وانتهى الأمر بإبطال الحكومة الملوكية وتأسيس الجمهورية، ولكن لم يتحصل العوام ثانية على جميع ما سلبوه من الحقوق إلا في عدة من السنين وبعد حروب داخلية جرت فيها الدماء كالسيول فأخر تقدم روما نحو جيلين بعمله الاستبدادي وإعادة النظمات القديمة مع عدم ملاءمتها للوقت.

أما ديانة الرومانيين فكانت الوثنية يشوبها شيء من الصابئية، ولماً كثرا احتلاطهم باليونانيين (الإغريق) اقتبسوا كثيراً من عوائدتهم الدينية واتخذوا معبوداتهم آلهة لهم، فأقاموا الهياكل والمعابد للمريخ والمشرى والزهراء وغيرها من التنجوم الثوابت والسيارة، وكانتا يؤلهون القوى الطبيعية كالبحر وأمواجه وجبال النار والهواء، وكذلك العواطف النفسانية كالحكمة والشرف وحب الوطن والحلم والغضب وهلم جراً، ويقيمون التمثال والأنصاب رمزاً لها فيعبدوها العوام بصفة آلهة حقيقة والعياذ بالله.

ولم يكن لهم قسوس لإقامة الصلة وتقديم القرابين لمعبوداتهم، بل كان كل رئيس عائلة يقوم بهذه الوظائف بين أفراد عائلته، وكان رئيس الحكومة هو الكاهن الأكبر، ثم وجدت بعض طوائف دينية خصصت لأعمال معلومة مثل المنجمين وكهنة المعبد المريخ وغيرهم مما لا يسمح لنا حجم الكتاب بتفصيله تفصيلاً كافياً.

وكان للرومانيين اعتقاد أكيد وتمسك شديد بالطوالع الفلكية والتفاؤل بأقل الأمور والتشاؤم من أصغرها، فكانوا لا يقومون بأي عمل خصوصي أو عمومي إلا بعد أن يستطاعوا اتجاه الريح وطير الطيور وتغريدها أو حالة ما يقدمونه من القرابين عند ذبحها من سكون أو اضطراب أو بعد موتها من تشنجات وحركات وحالة الأمعاء ولو نهاداً ووضعها، وكان الرجل لا يخرج من بيته إذا عثرت قدمه أو صادفه طير عن يساره إلى غير ذلك من الأمور التي تُضحك الصبيان ولا تزال مع ذلك متصلة في نفوس جميع الشعوب حتى التي انتشر التعليم بين أفرادها ولن تزال كذلك لليل النفس لتصديقها وانتقال الاعتقاد فيها بالوراثة حتى تتلاشى شيئاً فشيئاً بتعظيم التعليم وزوال أثارها المنطبعة في الخليفة تدريجاً.

وأما عوائدهم المنزليه فكان أساسها التقشف وعدم الترف والبذخ وترك الكماليات والاكتفاء بال حاجيات الضرورية، وكانت معاملة رب المنزل لخدميه كمعاملته لأولاده إذ كان يساعدهم في جميع الأعمال، وكان يحرث بيده مهما كانت ثروته العقارية، وكانت ربة البيت تصرف وقتها في تدبير شئون منزلها ومساعدة جواريها على القيام بكافة ما يستلزمها، وتصرف أوقات الفراغ معهن في الغزل والحياة، لكن كانت حالة المرأة في أيامهم أحط بكثير من حالتها الآن في جميع الجهات، وكان لا يجوز لها التصرف في أملاكها مطلقاً ولو بلغت من العمر عتيّاً، بل كانت طول حياتها في حالة الحجر تحت وصاية أبيها ثم زوجها ثم أكبر أبنائها فأخيها فابن أخيها إلخ على حسب ترتيب معلوم، وكان لرب العائلة الحق المطلق في مجازاة أولاده وامرأته بجميع العقوبات البدنية حتى القتل بدون أن يُسأل عن سببه؛ إذ كان الكل لديه كالأنعام أو أقل قدرًا ولا يصير الولد حرّاً مهما بلغ من العمر أو ترقى في مناصب الحكومة ما دام والده موجوداً، وكان للوالد أن يقتل ولده ولو كان عضواً في مجلس الشيوخ أو قائداً عاماً للجيش كما حصل في فتنة (كتلينا) حيث قتل والد ابنه وكان عضواً في المجلس المذكور بدون محاكمة، بل بمجرد ما له عليه من الحقوق، ومن غريب عوائدهم أن الدين العسر يكون رقيقاً لدائنه كما ذكرنا، ولو كان الدائنوين عديدين جاز لهم بيعه واقتسام ثمنه أو قتله وتقسيم جثته.

ثم تركت هذه العوائد البربرية شيئاً فشيئاً وارتقت الأخلاق العمومية تبعاً لارتفاع التمدن والعمارية مما هو مسطور ومذكور في المطولات خصوصاً في كتب القانون الروماني فليرجع إليها من يريد التوسع في هذا الموضوع.

الجمهورية في عهد القناصل الأشراف

من سنة ١٥١٠ق.م. إلى سنة ٤٧١ق.م.

قد ذكرنا فيما مر أسباب سقوط الحكومة الملكية، وما أتاه تاركان الشامخ من الفظائع الوحشية التي أبعدت عنه قلوب الأهالي وكانت سبباً لطرده وعائلته من المدينة، ثم شرحتنا ما أتاه من الاستنجاد بالأجانب ضد روما لإخضاعها وإعادته إلى مقر عرشه، وكيف استولى (پورسنا) على المدينة ولبث بها مدة، ونحن ذاكرون الآن الاحتياطات التي اتخذها مجلس الشيوخ عند تأسيس الحكومة الجمهورية لمنع عودة السلطة الاستبدادية ثانيةً وبقاء النفوذ في أيديهم وعدم تطرق أيدي طبقة العوام إليها أو طموح أنظارهم للحصول عليها، فقرروا أن ينتخب لرئاسة الحكومة اثنان من بينهم لمدة سنة واحدة، ويكون لهما ما كان للملك من الحقوق والوظائف إلا حق الحكم بالإعدام فيحرمون منه ما داموا داخل أسوار المدينة أو خارجًا عنها بمسافة ميل واحد ويعود لهم بعد هذه المسافة، وتقرر رمزاً لذلك أن لا توضع البطل ضمن العمد التي تحمل أمامهم إلا بعد ابعادهم عن المدينة بزيادة عن ميل، وأن تكون السلطة لكل منهما مدة شهر بالتناوب، وإن من يطمح لاختلاس السلطة المطلقة بدون حق أو يسعى في إعادة الملكية يكون جزاؤه القتل لا محالة، وأن تخفض العمد التي تحمل أمام القناصل عند حضورهم أمام الجمعية العمومية احتراماً لها واعترافاً بأن سلطتها فوق سلطتها.

ولزيادة ارتباط الأهالي بالجمهورية واستعمالتهم إليها أضيف إلى السناتو مائة عضو انتخبو من جماعة (الشفاليه) وانتخب مكانتهم مائة من أغنياء طبقة العوام، ثم وزعت أملاك العائلة الملكية على الفقراء من بينهم، وأبطلت الرسوم الجمركية على الحدود

لتخفض أسعار الواردات الخارجية وأنزل ثمن الملح كثيراً، وبذلك رسخت قدم الحكومة الجمهورية واتحد الرومانيون على الدفاع عنها وصاروا جميعاً على اختلاف طبقاتهم يدأ واحدة لصد هجمات الأعداء حتى وطدوا دعائهما وصار لا يُخشى عليهما من دسائس المفسدين ومكر الماكرين.

لكن من وجهة أخرى أهملت الزراعة بسبب الحروب المتواصلة وكثرة ديون الفقراء بترابكم الفوائد الفادحة حتى عجزوا عن الدفع ووقع كثيرون منهم في حالة الرق بمقتضى القانون فتأمر المديونون العسرون وطلبوا من الحكومة وضع حد لفوائد الزيادة، وإلزام الدائنين بترك بعض ديونهم التي أغلبها فوائد متكاثفة فلم تُضع الحكومة لشكواهم ولم تَسْعَ في تخفييف بلواهم؛ لأنه كان لأغلب القابضين على أَزْمَةِ الْحَكَامِ ديون على الأهالي، ولو لبوا نداءهم لخسروا مبالغ وافرة، ولازدياد الفقر وتفاقم الخطب امتنع الأهالي عن الخروج لحاربة الالاتين حين أتوا لنجدتهم تاركان في سنة ٤٩٦ ق.م. وأبوا القتال ما لم يُجبْ طلبهم فقررت الحكومة انتخاب حاكم مطلق مؤقتاً (دكتاتور) لمدة ستة شهور يتصرف في الأحكام حسب ما تقتضيه الأحوال حتى بالقتل^١ وكلفته بإكراه الأهالي على الخروج للقتال، فخرجوا اضطراراً لا اختياراً وهزموا الأعداء وصدوهم عن المدينة، واستعفي الحاكم المطلق ورجعت الأحكام إلى ما كانت عليه وازداد الدائnenون قسوة وخشونة في معاملة مديونيهم خصوصاً سنة ٤٩٥ ق.م. في عهد قنصلية (كلوديوس ابيوس) أحد المثيرين المربفين حتى اشتد الكرب على الأهالي وطلبوا ثانيةً تسوية ديونهم وعززوا طلبهم بالامتناع عن محاربة الفولسك حين تعدوا حدود روما في هذه السنة وغزوا بعض أحياها، فوعدهم القنصل الثاني سرفيليوس بالنظر في طلبهم بعد انتهاء الحرب، وأمر بالكف عن المطالبة مدة الحرب وإخلاء سبيل المسجونين بسبب ديونهم مؤقتاً حتى تضع الحرب أوزارها، لكن لم يصدق السناتو بعد انتهاء الحرب على هذه الوعود، بل ساعد المثيرين على الفقراء في تحصيل ديونهم، فامتنعت الجنود عن الحرب مرة ثالثة ولم يخرجوا إلا بعد أن وعدهم القنصل (منيوس فالريوس) الذي كان من إحدى العائلات الوضيعة وثقة الأهالي به وثوقاً تاماً بتتنفيذ جميع مطالبيهم وعزز وعده بالأيمان المغلظة، إلا أن السناتو لم يؤيد هذه الوعود لوجود الأغلبية فيه بين أيدي أصحاب الديون فاستعفى فالريوس وأهاج الشعب لنوال

^١ هذه الطريقة تشبه المتبعة الآن من وضع بعض الجهات تحت الأحكام العرفية أو العسكرية وإيقاف سير المحاكم العادلة مؤقتاً.

حقوقه بالثورة حيث إن جميع الطرق السلمية لم تصادف إلا وعوًداً عرقوبية مبنية على أطماع أُشعَّبيَّة، فثار الأهالي في سنة ٩٣٤ق.م. واجتمع بعضهم على الجبل المقدس خارج المدينة والبعض على جبل أفتنان داخلها، فأرسل إليهم السناتو وفداً لينصحهم بالخلود إلى الراحة والسكنية، مؤكداً لهم ترك ديون المعserين وإطلاق سبيل جميع المستعبدين بسبب عدم دفع ديونهم، وكان من ضمن الوفد رجل مشهور بالفصاحه يدعى (منتيوس أجْرِيَّا) خطب فيهم وحثهم على الائتلاف ونبذ الثورة، وضرب لهم مثلاً «إن أعضاء الإنسان تآمرت ذات يوم على ترك العمل وعدم تغذية المعدة قوله إنه ليس من العدل أن تشتعل جميع الأعضاء لمنفعة عضو واحد، فلما منع الغذاء عن المعدة ضعفت وامتد الضعف إلى الأعضاء المتآمرة، وعاد اعتصابها عليها بالضرر أكثر من المعدة نفسها».

لكن لم تؤثر هذه الوعود ولا هاتيك المواتع في المتآمرين لعدم الوفاء في الماضي، بل طلبوا ضمانة على تنفيذها أن يتخبو نواباً للدفاع عنهم، وأن لا تتفذ الأحكام ضد من يتضح عدم اقتداره على الدفع، فقبل السناتو هذا الطلب مكرهاً بعد تعديله بأن يكون حق الانتخاب للجيش فقط لتأثير الأشراف عليه وقلة عدده بالنسبة لمجموع الأهالي، فانتخب الجيش نائبين عن الأهالي أعطى لهما لقب (تربيان) ثم زيد عددهم إلى خمسة في سنة ٣٩٣. وكان لانتخابهم نتائج عظمى بالنسبة للأهالي أهمها استقلالهم عن القنصليين مما يقضى بإضعاف سلطتهم بقدر ما يعطى منها للتربيان، ومساعدة الأهالي على عدم تنفيذ أحكام القناصل المجحفة بحقوق الفقراء والمعسرين، وجعلت سلطتهم داخل مدينة رومة فقط وعلى مسافة ميل واحد خارجاً عنها، وفي سنة ٤٨٦ انتخب سبوريوس كاسيوس قنصلًا، وكان سبق انتخابه مرتبين لهذا المنصب السامي وذلك لميله لمساعدة الأهالي ضد الأشراف المرابين، ولما كان جل سعيه تخفيف أنقذ الفقراء عرض على مجلس السناتو تقسيم أراضي الحكومة بينهم والتشديد على الأغنياء في دفع الضرائب ودفع راتب معين للجنود مقابل ما يلزمهم من المؤن والأسلحة، وقد كان كل جندي ملزماً بالصرف على نفسه بدون تكبـد الحكومة صرف أي شيء عليه، فلم يسع السناتو إلا التصديق على هذا المشروع الزراعي مع ما فيه من الإضرار بالأغنياء القابضين على أَرْمَةِ الأحكام لمجاهدة الشعب باستحسانه وإظهار الرغبة الشديدة في تنفيذه، فصادق المجلس عليه مصرًا على عدم تنفيذه والإيقاع بواضعه، فأشاروا أن كاسيوس لم يراع صالح وطنه في معاهدة كان أبـرـمـهاـ فيـ قـنـصـلـيـتـهـ الـأـوـلـىـ معـ قـبـائـلـ الـلـاتـيـنـ وـوـافـقـتـ عـلـيـهـ قـبـائـلـ (ـالـهـرـنـيـكـ)، وـأـنـهـ فـضـلـ صـوـالـحـ الـأـجـانـبـ بـغـيـةـ الـاستـعـانـةـ بـهـمـ عـلـىـ إـذـلـلـ رـوـمـةـ وـإـسـقـاطـ الـجـمـهـورـيـةـ وـإـعادـةـ السـلـطـةـ

الملوكية فيها لنفسه، وأنه يسعى الآن في إيقاع الشحنة بين الأغنياء والفقراء من الأهالي للتفرقة بينهم والتمكن من تنفيذ مقصده الحقيقي وهو الاستئثار بالحكم والاستبداد بالملك.

ولما كان الشعب الروماني شديد الغيرة على استقلاله والمحافظة على حرية صدق هذه الوشایات ومال عنه، فانتهز السناتو هذه الفرصة المناسبة واتهمه بالسعى في إعادة الحكومة الملوكية حكم عليه بالإعدام وقتل في أواخر سنة ٤٨٦ شهيد مسامي من يفضل الصالح الخاص على الصالح العام ولم يراع حرمة مصلحة لخادم صديق لوطنه.

وبعد موت كاسيوس ماطل السناتو في تنفيذ مشروعه الذي ضحى حياته للحصول على التصديق عليه، وساعدته على ذلك عائلة فابيوس الشهيره بمعاداة الأهالي ومساعدة الأشراف على أطماعهم، وبقيت وظيفة القنصلية في عائلتهم سبع سنين متواتلة من سنة ٤٧٨ لغاية سنة ٤٨٤ لم يسمع في أثنائها نداء الأهالي ولا نوابهم (التريبان) الذين بعد أن أعيتهم الحيل في الحصول على تنفيذه بالطرق السلمية عدوا إلى استعمال الحق المنوح لهم من إيقاف تنفيذ أوامر القنصل لــ رأوا أنها مخالفة لصالح منتخبיהם، وعارضوا فعلــا في تنفيذ قانون الخدمة العسكرية وأمرروا الأهالي بالامتناع عن الدخول فيها حتى يعمل بممشروع كاسيوس وتوزع عليهم الأرضي التي تقرر إعطاؤها لهم، ولما كانت سلطتهم القانونية قاصرة على مدينة روما وضواحيها على مسافة ميل واحد فقط، نقل القنصلان مركز أعمالهم على مسافة تزيد عن الميل، وأمرروا بجمع أنفار الجنديــة بالقوة وحرق مزروعات من يمتنع منهم امتثالــا لأوامر نواب الأهالي، فكثــرت الشكوى وعلا التذمر، وخيف حصول فتنة عمومية تكون عاقبتها وبالــا على الجميع، ولذلك استمال السناتو بعض النواب وهم أقنعوا المعارضين بضرورة المسالمة وعدم المعارضــة منعاً للثورة، فسحبوا أمر الامتناع ونصحوا الأهالي بالدخول في الجنديــة فامتثلوا إلا أنهم أرادوا الانتقام من عائلة فابيوس التي كانت معصدة لهذه الإضطهادات، فامتنعوا عن القتال في واقعة كان قائدها أحد أعضاء هذه العائلة واسمــه (سيزوفابيوس) حتى لا يتم النصر ولا يكون له حق في الاحتفــال الذي يعمل للقنصل المنتصرــين عند عودتهم إلى المدينة.

فلما رأت عائلة فابيوس أن الأهالي ناقمين عليها لمساعدتها السناتو وأعضائه، وأن السناتو ابــدا يقلب لها ظهر المجنــن لخــوفه من نمو نفوذها بين الأشراف وبقاء الزعامة فيها من مدة.

ولاعتقاد أعضائها بأن الفوز لا بد وأن يكون في آخر الأمر للشعب على الأشراف مالت بكلياتها عن السناتو، وصارت من أكبر مساعدي الشعب على تنفيذ القانون الزراعي، فكانت نتيجة ذلك أن الأهالي ساعدوا القنصل فابيوس في سنة ٤٧٩ على محاربة قبائل الأتروسك، فغلبهم وما كان لحق بعاثته من العار بسبب انخال (سيزوفابيوس) أمام الأعداء.

ولما عاد الجيش منصوراً إلى المدينة دخلها في موكب حافل حسب العادة، وقبل فابيوس جرحى القراء في داره، فزاد تعلقهم به وبعاثته لدرجة أفلقت السناتو وأعضاءه على امتيازاتهم واستقلالهم، وزاد خوفهم وقلقهم لما طلب (سيزو) السالف الذكر تنفيذ القانون الزراعي الذي تقرر من سنة ٤٨٤ ولم ي عمل به، ولذلك تأمر الأشرف على إخراج هذه العائلة من روما بدعوى أنها تسعى لإعادة الملك وأرعبوا الأهالي بهذا الخيال الوهمي فلم يُبدوا أي حركة ظاهرة للدفاع عنها كما كان ينتظر فخرجت مع أتباعها وعدهم نحو الأربعة ألف ونزلت على ضفة نهر كراميرا الذي يصب في نهر التبر لصد هجمات الأتروسك عن مدينة روما؛ إذ حافظت هذه العائلة على ولائها ولو لم تجد منها إلا الجحود والكفران لأن حب الوطن يجب أن لا تزعزعه الحوادث أو تؤثر فيه الكوارث، بل يبقى هذا الإحساس حياً إلى آخر رمق من الحياة.

وفي سنة ٤٧٧ انقضت هذه العائلة تقريباً في إحدى حروبها المتعددة مع القبائل بسبب عدم تحرك القنصل منتيوس لنجاتها ومد يد المساعدة إليها مع وجوده معسراً بجيشه بالقرب من محل القتال، ولذلك ثار عليه الأهالي واتهموه بالخيانة وطلبوها محاكمةه بصفة خائن للوطن، فلم ينتظر المحاكمة بل امتنع عن الأكل حتى مات جوعاً هرباً من العقاب الصارم الذي استحقه بترك الأعداء يتغلبون على إخوانه الرومانيين تشفياً لضيائنه شخصية يجب أن تصحي على هيكل الوطنية.

واعتبر اتهام الشعب لهذا القنصل سابقة ينسج على منوالها لاتهام كل من يشتهر من القنصل بعدم مساعدته على تغيير القانون الزراعي عند انتقاء مدة انتخابه، ففي سنة ٤٧٥ اتهموا القنصل سرفيليوس لعدم انتصاره في موقعة حرية ولم يحكم عليه بشيء، وفي سنة ٤٧٣ اتهموا مانليوس وفوريوس لعارضتهم في تغيير القانون الزراعي وتولى اتهامهما النائب (تربيان) جنوسيوس لاشتهره بقوة الحجة وفصاحة اللسان، وأقسم أمام الشعب بأنه لا بد من الحصول على معاقبة هذين القنصلين حتى يلزم من يأتي بعدهما بتنفيذ هذا القانون، لكنه وُجد قتيلاً في فراشه يوم المحاكمة بدسيسة الأشرف

حتى لا يُحاكم القنصلان المتهماً، ويقال: إنه قُتِلَ في هذه الليلة كثير من فصحاء الشعب المطالبين بحقوقه المسلوبة، فوقع الرعب في قلوب الأهالي وأراد السناتو انتهاز هذه الفرصة الثمينة لثبت سلطته وتقريرها، فأمر بجمع الشعب في الفورم لانتخاب من يليق منهم للخدمة العسكرية، وكاد يتم الأمر بسكون لعدم معارضة أحد من الأهالي أو نوابهم لولا قيام (بوبليسيوس فوليرو) وتحريضه الأهالي على الثورة وعدم الامتثال لأوامر الحكومة ما لم ترد إليهم حقوقهم المسلوبة ظلماً وعدواناً، فأمر القنصل بالقبض عليه فهاج الشعب وخلصوه عنوة من أيدي القابضين وطردوا القنصل وأعضاء السناتو من الفورم بالقوة.

وفي سنة ٤٧٢ انتخب فوليرو نائباً عن الشعب (tribian) فبدل كل اهتمامه لإنارة الشعب حفاظاً على تحصل عليه يكون مقدمة لحصوله على حقوق كثيرة تتيه السلطة الحقيقة مع الوقت، وتفصيل ذلك أن انتخاب نواب الشعب كان يحصل بمعرفة فرق الجيش المئينية التي للأشراف النفوذ والسيطرة عليها، فارتأى فوليرو أن يكون انتخابهم بمعرفة جمعية الأهالي العمومية التي لا يحضرها أحد من الأشراف مطلقاً ولا نفوذ لهم عليها، فلم يقبل السناتو هذا الطلب العادل بل ماطل وحاول حتى مضت مدة (فوليرو) ولم يقرر مشروعه الذي سمي بقانون بوبليلا نسبة له، ثم أعيد انتخابه رغم مساعي الأشراف وأشياهم وانتخب معه (ليتوريوس)، وكان أشد كراهة لاستبداد السناتو فأضاف إلى مشروع فوليرو الأصلي أن يكون لجمعية الشعب العمومية حق التداخل في شؤون الحكومة أيًّا كانت بواسطة الاقتراع العام.

ومن جهة أخرى انتخب السناتو (أبيوس كلوديوس) ضمن قنصلية هاته السنة لمعاداته للشعب ومحافظته على امتيازات الأشراف وخصوصياتهم، ولا أتى اليوم المحدد للاقتراع على مشروع قوليرو اجتمع الأهالي في الفور الموصولة ساحته إلى محل انعقاد مجلس السناتو للتظاهر وتعضيد المشروع وإلزام المجلس بقبوله وتهديده بالثورة والعصيان لو رفضه في هذه السنة أيضًا، فلم تؤثر هذه المظاهرات في أعضائه بل رفضه فهاج الشعب بأجمعه وأعلن الإقرار عليه والعمل به رغم مجلس السناتو وعنانده، وحصلت عدة معارك بين الفريقيين جرح فيها ليتوريوس وكاد يقتل كلوديوس لو لا أنه التجأ إلى قاعة المجلس، ونحا بنفسه بكل مشقة.

ثم احتل الشعب قلعة الكابيتول وألزم السناتو بالتصديق عليه فصدق مكرها، وبذلك تم الفوز للشعب وتحصل الأهالي على ما يمكنهم به التأثير على سير الحكومة خصوصاً بما أضيف على هذا القانون الجديد من أن للأهالي الحق في الاقتراع في جمعيتيهم العمومية على

ما يروننه ضروريًّا من القوانين والنظمات. نعم إن تصديق السناتو كان واجبًا لتنفيذها إلا أنه كان لم ير بُدًّا من الموافقة على ما يعرض عليه لسوق إقرار الأمة عليه. هذا؛ ولأَنتخب المدعو (إيسيليوس) نائبًا عن الشعب (تريبيان) بالطريقة الجديدة اقترح أنه لا يجوز لأحد ما مقاطعة نائب الأمة أثناء تلقيه بالفوروم، ومن يفعل ذلك يحاكم بالقتل ومصادرة الأموال إذ اقتضت الظروف ذلك، وصودق على هذا الاقتراح مع ما فيه من القسوة والصرامة حبًّا في منع حصول ما يكره صفاء الاجتماعات أثناء المداولة في المسائل المهمة والتشويش على الخطباء ومنعهم بكيفية ما من تتميم خطابهم والتمتع بحرية الدفاع عن مشروعاتهم.

وفي هذه السنة وهي سنة ٤٧٠ ق.م. دارت رحى الحرب بين الرومانيين وقبائل (الفولسك) والأيلك فخررت الجيوش تحت قيادة القنصل (أبيوس كلوديوس) الذي كان من أقوى المعارضين في مشروع انتخاب نواب الشعب بمعرفة الجمعية العمومية كما سبق بيانيه في موضعه، ولما كان الكل غير راضٍ عنه لهذا السبب وليله للأثرة والاستبداد تقهقرت الجنود أمام العدو بدون شديد مقاومة حتى إذا انهزوا وفاز عليهم العدو بالغليبة والانتصار حوكم (أبيوس) بصفة مقصري في الواجب أو خائن للوطن، لكن أدرك أبيوس دسيستهم وعلم أن انهزامهم لم يكن لشدة بأس العدو أو كثرة عدده، بل للأسباب التي ذكرناها فأراد الانتقام منهم قبل العودة إلى روما فعاقب أغلب رؤسائهم بأشد العقوبات العسكرية صرامة وهو القتل تشفياً منهم، ولما عاد إلى المدينة اتهمه نواب الأمة (التريبيان) بالخيانة فقابل اتهامهم له بكل أنفة وكبراء وقتل نفسه حتى لا يحاكم على جنائية هو براء منها، فاحتفل الأهالي بجنازته احتفالاً باهراً اشتراك فيه الأشراف والعوام لاعتبار الكل له بسبب شهامته وعلوه عن الدنيا وترفعه عن التزلف للأمة ونوابها.

هذا وبالختصار فإن طبقة العوام في روما تحصلت — في مدة ثلاثة وعشرين سنة؛ أي: من سنة ٤٩٤ إلى سنة ٤٧١ — على سلطة ونفوذ في إدارة شئونها وشئون الحكومة ما كانت لتحصل عليها لولا اتحادها حق وتضارفها على الطلب والمثابرة عليه بكل ثبات لا ترهبها القوة ولا ترعبها السلطة ما دامت معتقدة إنها تطالب بحق مقدس هو المساواة للأشراف الذين لا يميزهم عن باقي طبقات الأمة مميّز طبيعي أو عقلي.

ففي سنة ٤٩٣ تحصلوا على حق تعيين نواب عنهم، وفي سنة ٤٧٦ خول هؤلاء النواب لأنفسهم حق اتهام القناصل أمام الشعب وطلب محاسبتهم، وفي سنة ٤٧١ أجيزة للشعب حال اجتماعه بهيئة جمعية عمومية أن يقترب على الأمور العمومية ويصدر عليها

قرارات أهلية تكون نافذة على جميع الأهالي دون الأشراف ما لم يصدق عليها السناتو الذي كان لا يتيسر له الامتناع أمام إجماع الشعب خشية الثورة وإراقة الدماء.

خيانة كوريولان

وفي أثناء اشتغال روما بمسائلها الداخلية التي شرحتها مبتدئ الأعداء حدودها مراراً ونهبوا مزروعاتها ومواشيها واقتربوا من المدينة لامتناع الجيوش عن الحرب مراراً بسبب توقف الحكومة عن تنفيذ القانون الزراعي.

ومن غريب ما ذكر في تاريخ هذه السنين ولم يسبق في تاريخ روما في عهد الجمهورية أن الأعداء هاجموا الرومانيين تحت قيادة أحد أشراف الرومان واسمه (كوريولان) كان في الأصل من أكبر المدافعين عن وطنه وأشدتهم تعلقاً به إلا أنه كان مساعدًا للأشراف ضد طبقة العوام، وينسب له أنه عندما حصل جدب في إحدى السنين غلت الحبوب واشتراطت الحكومة مقدارًا وافرًا من الغلال من الغلال من جزيرة صقلية لتوزيعها على الأهالي اقترح على السناتو عدم توزيع شيء على الشعب ما لم يتنازل عن حق انتخاب نواب له ويرضخ للأشراف كما كان الحال قبلًا، فهاج الشعب ضده وطلبه التريبيان (نواب الأمة) للمحاكمة أمام الشعب، فحكم عليه بالنفي والإبعاد فخرج مضمِّنًا الشر لوطنه والعياذ بالله، والتجأ إلى توليوس أحد رؤساء قبائل الفولسك الشهير بعاداته للرومانيين وعرض عليه استعداده للانتقام من وطنه وبينيه، فقابلته هذا العدو بقلب منشرح وصدر رحيب وقبل أن تكون رياضة الجيش لكريولان ويكون هو نائبه في قيادتها ثم قصد روما سنة 490 في جيش عظيم، وأمر كوريولان بنهب المزارع التي أصحابها من طبقة العوام وعدم مس أراضي الأشراف بسوء، وسار بهذه الكيفية يبذل الخراب والدمار في طريقه إلى أن وصل هنا الخئون إلى بعد خمسة أميال فقط من المدينة، فأرسل إليه السناتو أكبر أعضائه سناً وأكثرهم اعتباراً لإرجاعه عن غيه وحمله على كف الغارة عن وطنه فلم يقبل، وكذلك لم يصح إلى نصائح وإرشادات قسوس مذهبة الذين أخذوا يبينون له قبح خيانته وعظم جنائيته نحو وطنه وأهله، بل أعماه وأصممه حب الانتقام، وأخيراً أتت إليه أمه (فيتوريا)

باكية آسفة على عقوق ولدها ومساعدته الأعداء على بلاده بعد أن كان من أقوى المدافعين عن استقلالها فرثى لبلوهاها ورَقَ لش��واها وعاد مع من معه من الجيوش مقتنعاً بما أخذه من الغنائم، فحق عليه توليوس لعدم تمكينه من دخول روما والاستيلاء عليها ويقال: إنه قتل، وقيل: إنه لم يقتل بل بقي مطروحاً مخدولاً حتى مات غير مأسوف عليه. وكذلك كانت هذه الفترة فرصة مناسبة لأعداء حلفاء روما وهم قبائل اللاسيوم والهرننيك، فأغارت الفولسك على بلاد اللاسيوم ولم يمكن روما إسعافها بالمساعدة لاشتغالها بأمورها الداخلية من جهة ولاحتلال القائين مرتفع جانيكول بضواحي روما عقب انهزام عائلة فسيوس على نهر كريميلا في سنة ٤٧٧، واستمر هذا الضيق إلى سنة ٤٧٠ حيث أمضى بين أهالي مدينة (فایه) والرومانيين هدنة لأربعين سنة.

ولم يتم لرومما السكون تماماً لإغارة قبائل الأيكيين عليها سنة ٤٧١ وصدهم عنها بهمة وشجاعة القنصل كونيكثيوس الذي لقب بأبي الجندي من معاملته لهم واعتباره إياهم كأولاده، لكن لم ترتد هذه القبائل المحبة للحرب، بل عاودت الكرة عليها أربع مرات وتبعهم القنصل فوريوس في إحداها سنة ٤٦٨ حتى وصل إلى مضيق فحاصروه وضايقوا عليه الخناق، وكاد يهلك هو وجيشه لو لا أن أدمهم كونكتيبوس بإسعافه وتخليصه من هذه الورطة.

وفي السنة نفسها فتح هذا القائد الذي حاز شهرة عظيمة مدينة نيوم إحدى التغور المهمة وتبعد عن روما بمسافة كيلومتر، وعند عودته متصوراً عمل له احتفال عظيم لم يسبق له مثيل صعد به إلى قلعة الكاپيتول، ولذلك أُعطي إليه لقب كاپيتولينوس، ثم توالت إغارات الأعداء على أراضي روما، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين وأهم ما حصل فيها أن بعض المطرودين من روما هاجموها فجأة في سنة ٤٩٥ تحت قيادة زعيم لهم أصله من السابين اسمه هارورينوس واحتلوا الكاپيتول عنوة ثم أكرهوا على إخلائه بعد أيام قلائل، وفي سنة ٤٥٨ تبع القنصل منسيوس بعض قبائل الأيك، فحصروه في مضيق وخيف هلاكه ومن معه من الجنود، فعين السناتو القائد سنسناتوس حاكماً مطلقاً لإنقاذ القنصل المحصور، ولما توجه إليه وفد من المجلس لتبلغه خبر تعينه وجدوه يحرث الأرض بنفسه فقبل المأمورية وسار في جيش عظيم، وبعد أن أدى المأمورية وأنقذ القنصل وجيشه عاد في احتفال عظيم ثم استقال من منصبه المؤقت فعادت الأحكام إلى نظامها العادي وعاد هو إلى محاراته كما كان، فتأمل لهذا التقشُّف وهذا الإخلاص وهذا التجدد عن الغايات وعن حب المناصب وقل لي بأبيك كيف لا تبلغ أمة اتصف أفرادها

بهذه الصفات الحميدة والخلال الوطنية شاؤً عظيمًا في العالم، وتسود على من عادها وتتغلب على من عادها ويمتد سلطانها على مشارق الأرض ومحاذيبها.

وبالاختصار كانت أيام الجمهورية الأولى أيام حروب مستمرة وخطوب مدلهمة لم تعدد على روما بفتح شيء من البلاد إلا أنها حافظت في خلالها على أراضيها الأصلية، ولو أنه أصاب الأمم المتحالفه معها بعض الضرر خصوصاً اللاتين إلا أن الرومانيين تدرّبوا في خلالها على فنون الحرب وضروب النزال واستعدوا للفتوحات العظيمة التي أنالّتهم ملك جميع الأرض التي كانت معلومة في هذه الأعصر الخالية مما سيأتي ذكره مفصلاً في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

حكومة العشرة وحصول الشعب على المساواة في الأمور المدنية

قد سبق لنا شرح ما نالته طبقة العوام (التي سميّناها وسنسمّيها دائمًا بالشعب أو الأمة) من الحقوق والامتيازات، لكن ما نالته كان بعضاً من كل أو بعبارة أخرى: إن ما تحصلت عليه كان عبارة عن الطرق القانونية التي بها تتحصل على المساواة مع طبقة الأشراف التي كانت محتكرة جميع الوظائف العالية ومحافظة على ما لها من السلطة والسود، ولما كان الفوز دائمًا لجانب الحق على القوة إذا ثابر أصحاب هذا الحق على طلباتهم وأصرّوا على المطالبة بها بالطرق القانونية العادلة انتهى الأمر للشعب بالفوز والحصول على المساواة تدريجياً تبعاً للظروف واختلاسًا لفرص المناسبة فحصلت في سنة ٤٥٠ على المساواة في الأمور المدنية، وفي سنة ٣٩٧ على المساواة السياسية، وفي سنة ٣٢٩ و٣٠٦ على المساواة القضائية، وفي وظائف القضاء وفي سنة ٣٠٢ على المساواة الدينية.

وببيان عدم المساواة المدنية أن الأحكام كانت بيد القنائل ومجلس السناتو وبعض القضاة، لكن كانت اختصاصات كل منهم غير محددة بكيفية تمنع تجاوز الحدود، ومن جهة أخرى كانت الأحكام تصدر لا على قانون معلوم للعموم بحيث إن كل فرد يعلم ما له وما عليه، بل كانت تصدر بناء على قواعد قديمة وعواائد مألوفة لا يعلمها إلا القليل يتصرف فيها أصحاب الأهواء حسب غايياتهم ومنافعهم الشخصية.

وحيث كانت أزمة الحكومة في أيدي طبقة الأشراف كان الحيف والظلم دائمًا على فقراء الأهالي، ولذلك اجتمع نواب الأمة (تربيان) واتفقوا على أن يطلبوا من الحكومة تعيين لجنة مؤلفة من عشرة متشرعين يكلفون بتدوين العوائد القديمة وتقسيمها وترتيبها بطريقة يسهل فهمها على العموم، فلا يمكن للقضاة التلاعُب بالأحكام، ثم ينشر هذا

القانون ويعلق في الفورم ليكون معلوماً للخاص والعام، واختار النواب أحدهم المسمى ترنتليوس أرسله لعرض هذا الطلب والسعى في الحصول عليه فقام بهذه الدعوة في سنة ٤٦١، لكن لم يصادف طلبه قبولاً لدى مجلس السناتو، بل رفضه رفضاً باتاً وتحزب بشأن الأشراف ضد هذا المشروع تحت زعامة (سيزون) ابن سننسناتوس فصاروا يتجمهرون في الفورم ويتشوشون على الأهالي في اجتماعاتهم ويعملون مداولاتهم فاتّهم بعضهم سيزون بضرب أحد نواب الأمة في إحدى هذه المناوشات، وأنهم آخر بإصابة آخر له طاعن في السن بعربيته لقتله، وأشاعوا هذه التهم في الفورم فهاج الأهالي وطلبوها محاكمة فهرب إلى جهات اترورية سنة ٤٦٠ فراراً من العقاب وهو القتل جزاء تعديه على أحد نواب الأمة حال تقلده منصب النيابة كما كانت تقضي بذلك القوانين.

ولما هاجر أخذ يفكر في الانتقام من أهل وطنه فاستعان بأحد رؤساء السabin واسمه هرديينيوس، وأغار على روما ومعه كثير من المطرودين والبعدين لشروعهم ومفاسدهم فاحتلوا الكابيتول ثم استخلصه الرومانيون وقتلوا كل من به من الأعداء، ولم تشارك الأمة في هذه الحرب إلا بعد أن وعدها القنصل ڤالريوس بقبول مشروع النائب ترنتليوس السابق ذكره جزاء مساعدته على طرد الأعداء، لكن لسوء الحظ قتل ڤالريوس في هذه الواقعة وعيّن مكانه سننسناتوس والد سيزون الذي فر هرباً من المحاكمة (وربما كان ضمن المقوتين في الكابيتول) فلم يقم بنفاذ ما وعد به القنصل السابق وطلب من السناتو رفض المشروع فرفض.

إلا أن الأهالي داوموا على إصرارهم وثبتوا في طلبهم وأعادوا انتخاب نوابهم المساعدين على هذا المشروع خمس سنين متالية، ولما لم تَرِ الحكومة بدأ من إجابة طلبهم منعاً للمشاغب والفتنة الداخلية التي تُجرّى الأعداء على محاربتها عمدت إلى الحيلة والخدعة، فقررت أن يكون عدد نواب الأمة (التيبان) عشرة حتى يمكنها التفريق بينهم فيكون عدم اتحادهم مضعفاً لقوتهم ومقللاً من نفوذهم، لكن فطن الأهالي لهذه الحيلة فزاؤوا اتحاداً وتضافراً على المطالبة بحقوقهم.

وفي سنة ٤٨٤ ق.م. طلب النائب (إسليوس) أن توزع أراضي الحكومة الكائنة على مرتفع (افتان) على فقراء الأهالي، فقررت الأمة هذا الطلب في جمعيتها العمومية وألزم إسليوس القنصل على عرضه على السناتو وتحصل على تصريح خصوصي بحضور الجلسة التي بحث فيها في هذا الطلب (وكان ذلك غير جائز لنواب الأمة) وبقوة بيانه وبلاعنة خطابه أقر السناتو عليه خوفاً من حصول ثورة داخلية، وكان لحضور إسليوس مجلس

السناتو نتيجة عظمى حيث اعتبر هذا التصريح الاستثنائي سابقة تتبع في المستقبل، وصار لنواب الأمة من ذلك التاريخ الحق في حضور جلسات السناتو للدفاع عن مشروعاتهم، بل وفي طلب انعقاده أيضاً في جلسات فوق العادة للمداولة في المشروعات المهمة التي يكون في تأثيرها ضرر.

وبعد ذلك عادت الأمة للمطالبة بمشروع ترنتليوس القاضي بتدوين الشرائع وتقنينها، فماطل السناتو مدة ثمّ لـ رأى أن ضرر التسويف أكثر من نفعه وأن لا بد من الرضوخ لطلبات الأمة يوماً طوغاً أو كرهاً قرر قبول هذا المشروع مبدئياً وتعيين لجنة مؤلفة من ثلاثة أعضاء للسفر إلى مدينة أثينا مقر حكومة الهلين الذين اشتهروا في التواريخ العربية باسم الإغريق، وإلى المدن التي أسسها الإغريق في جنوب إيطاليا للبحث في شرائعها وقوانينها وأخذ ما يوافق بلاد الرومانيين منها ووضع قانون كافٍ شافٍ بعد عودتهم من هذه الرحلة، وكان قصد السناتو بتعيين هذه اللجنة المماطلة وضياع الوقت في سفرها ف تكون أفكار الأهالي قد سكتت وهدأت حركتهم فيتخلص السناتو من تنفيذ هذا المشروع، لكن لم تصب سياستهم ولم تنجح حيلتهم فإن الأعضاء الثلاثة عادوا في أقرب وقت.

فاللتزم السناتو بتعيين هيئة حكومية من عشرة متشرعين حول إليهم السلطة المطلقة، وأوقف سير النظام الأصلي وأبطلت وظائف القنصلين ونواب الأمة مؤقتاً ريثما تتم الهيئة الجديدة بأمريتها؛ وهي سن قانون جامع ينبع عن العوائد القديمة مع إضافة ما يلائم البلاد من عوائد وقوانين الإغريق التي جمعها المتذوبون الثلاثة، وابتدأت الحكومة الجديدة عملها في مايو سنة ٤٥٠ ق.م. وكانت الرئاسة لكل منهم مدة أربع وعشرين ساعة فقط، فاشتغلت هذه اللجنة مدة سنة سارت الأمور في أثنتها بغایة الهدوء والسكينة، وفي ختامها أتمّت سنّ ما كلفت به من القوانين وأمرت بنقضها على عشرة ألواح وتعليقها في الفورم ليطلع عليها العموم ويبيدي كل إنسان ما يعن له من الملحوظات ويعرضها على اللجنة، وهي بعد جمع هذه الملحوظات وتنتقح القوانين بمقتضى ما يوجد منها موافقاً للصواب تعرضها منقحة على الأمة في اجتماعها العمومي فتقررها أو ترفضها.

ولما انقضت السنة الأولى ووجب تغيير أعضاء اللجنة العشرية حسب العادات الرومانية التي تقضي بتغيير الحكم كل سنة خوفاً من طموحهم إلى الاستبداد سعى أحدهم المدعو أپيوس كلوديوس في أن يعاد انتخابه خلافاً للعوائد المتبعة، وأن ينتخب الباقون من خاملي الذكر ضعاف العزائم الذين لا يقوون على معارضته وساعدوه على ذلك

شبان الأشراف انتقاماً من الأمة على تحصلها على جملة حقوق وسعيها في الحصول على المساواة بهم، وقد جرأ أپيوس على ذلك نفس أعضاء مجلس السناتو الذين أظهروا له سرورهم من خطته ولم يراعوا واجب الدفاع عن حرية الشعب ناظرين إلى سوء العاقبة التي تعود عليهم من استبداد فرد بالسلطة إذ لا يقتصر ظلمته واستبداده على طبقه من الأمة، بل يتعدى إلى باقي الطبقات عاليها وسافلها، لكن هو الغرض يعمي عن نظر الحقيقة ويضم عن سماعها فتحقق المصيبة العموم، ولا يلتفت إلى عاقبها إلا بعد فوات الوقت فيندم المتسببون فيها حيث لا ينفع الندم.

وبهذه المساعدات تحصل أپيوس على مرغوبه وأعيد انتخابه وانتخب رفاقه على حسب ما يحب ويهوى حتى صار هو صاحب السلطة المطلقة فعلاً إن لم يكن قانوناً، وصارت أرواح الأهالى وأموالهم في قبضة يده يتصرف فيها بما يميله عليه الغرض ويلقنه إليه الطمع ولا رادع يردعه لتوقيف جميع دوالib الحكومة ونظماتها مؤقتاً كما ذكر قبل. واستمرت الحال كذلك إلى انتهاء السنة الثانية من تعينه، ولما انتهت لم يظهر رغبته في الاستقالة لي منتخب غيره كما جرت به العادة، بل ظل قابضاً على **أَزِمَّةِ الْحُكُمَ** بصفة غير قانونية والأشراف مساعدون له وأعضاء مجلس السناتو غاضبون الطرف عنه. وفي هذه السنة أتمت لجنة التشريع لوحتين صار نقشهما وتعليقهما في الفورم كالعشرة ألواح السابقة وسنأتي على ملخصها بعد.

ثم أتاحت الله لرومة فرصة مناسبة كادت تتخلص بها من استبداد أپيوس وزملائه لولا ضعف عزيمة بعض أعضاء السناتو وعدم ثباتهم وذلك أن بعض قبائل السabin والأيك تعدد حدود روما، فاجتمع السناتو بصفة غير اعتيادية لتقرير ما يلزم لصد الأعداء وفي الجلسة قام أحد الأشراف الغيورين على حرية وطنه واسمه ڤلريوس وطعن في هيئة الحكومة التي يرأسها أپيوس وأبان مخالفتها للقوانين وضرورة إبطالها وإعادة الأحكام إلى ما كانت عليه خصوصاً، وقد أتمت عملها التشريعي وعلقت الاثني عشر لوحاً وختم خطابه قائلاً: إن أولاد الذين طردوا الملوك لا يخضعون لأوامر غيرهم، فغضبه بعض الأعضاء وقاومه آخرون، وبعد مناقشة طويلة تقرر بقاء الهيئة مؤقتاً على ما هي عليه، وأن تسلم لها الجيوش لمحاربة الأعداء فخرجت الجيوش للقتال وعادت بالخيبة لعدم كفاءة قواها وعدم ثقة الجندي بهم.

وبعد ذلك بقليل ارتكب أپيوس أمراً استبدادياً يدل على تجرده من الشرف والذمة وكان السبب في نفور الأمة منه، وهو أنه أحب فتاة تدعى (فرجينيا) ابنة أحد الأعيان

فأوزع إلى أحد أتباعه أن يدعيها رقيقة له فيحكم له هو بذلك ويسلمها إليه ثم يردها إليه ليقضي منها أربه فتصدع التابع بأمره ورفع دعواه إليه فحكم بملكيته لها مع قيام الأدلة واتفاق الشهود على أنها حرة النسب.

فلما رأى ولدها أن لا بد من تسليمها إليه فضل أن يقتلها ويعدمها الحياة على ما يلحقها ويتحقق عائلتها من العار لو سلمها إلى هذا الباغي فعمد إلى دكان قصاب وأخذ منها سكيناً طعن بها ابنته وفلذة كبده طعنة كانت القضائية، ثم حمل جثتها ودمها البريء يسيل في الطريق حتى وصل إلى الفورم، وهناك اجتمع عليه الأهالي فأظهر لهمحقيقة الحال وشرح لهم تدبير هذه المكيدة بمعرفة إپيوس فاستقرت الغيرة الحضور وهاج الشعب ضد هذا الباغي ومعضديه وانضم إليهم الجيش وطلب الجميع بلسان واحد إسقاط هذه الهيئة وإعادة الأحكام إلى سابق مجريها فتوقف إپيوس قليلاً لمساعدة بعض أعضاء السناتو الذين كانوا يخشون إعادة سلطة نواب الأمة (التريبيان)، ثم انصاع خوفاً من حصول ثورة أهلية تكون عاقبتها أكثر وخامة عليهم واستقال هو وبباقي أعضاء الحكومة المؤقتة في سنة ٤٤٨، وعاد الموظفون الأصليون إلى مناصبهم، ولنذكر الآن بطريق الإيجاز ملخص ما دوّنه من القوانين في الائتني عشرة لوحة وعلى من يريد الوقوف عليها تفصيلاً أن يراجع القانون الروماني.

أهم ما جاء بهذه الألواح تقسيم الأموال إلى عمومية وخصوصية وعدم جواز امتلاك العمومية بالبلدة الطويلة مطلقاً، وتملك الأرضي الخصوصية بوضع اليد عليها مدة سنتين فقط بشرط أن يكون واضع اليد رومانياً لا أجنبياً، أما الأجانب فلا يمكنهم امتلاك أراضي الرومانيين بالبلدة مهما طالت، ولذلك كان الأجانب يسعون دائماً في التجنس بالجنسية الرومانية حتى لا ينزاّعوا في أملاكهم بعد سنتين، والقصد من ذلك أمران: أولهما حمل الأجانب على طلب الدخول ضمن العشيرة الرومانية، وثانيهما – وهو الأهم – عدم إهمال الملك أراضيهم خوفاً من امتلاك الغير لها فلا تهمل الأرض، بل يعني بزراعتها واستغلالها فتزداد العمارة وتنمو الثروة، أما المنقولات والعيدي فتملك بوضع اليد مدة سنة واحدة، وأبقيت القوانين الجديدة كافة حقوق رب العائلة على زوجته وأولاده وعيبيده على ما كانت عليه من الإطلاق وعدم التقييد، ولم تبطل ما كان متبعاً من جعل المدين رقاً لدائنيه ببيعونه ويقتسمون ثمنه أو يقتلونه ويقتسمون جثته مع ما في هذه العادة من التوحش، وأجازت قتل اللص لو فوجئ ليلاً حال تلبسه بالسرقة ونهاراً لو حصلت منه مقاومة عند ضبطه، أما في مسائل الجروح والضربات وإتلاف الأعضاء فقررت بمجازاة

المثل؛ أي: العين بالعين والسن بالسن وهكذا ما لم يُرض الجني عليه بمال إلى غير ذلك من الجزاءات.

وأهم ما جاء فيها في صالح الشعب مما كان يسعى وراءه هي المساواة في التقاضي والمحاكمة بين جميع الأفراد سواء في ذلك الرفيع والوضيع والشريف وغيره، فأبطل التمييز في التقاضي وصار القانون واحداً يخضع الجميع أمامه، وأهم من ذلك أنها جعلت جميع الأحكام قبلة للاستئناف أمام الأمة في جمعيتها العمومية، وأنها هي دون غيرها التي تحكم بالإعدام، وأن ما يقرره الشعب يكون قانوناً عمومياً على جميع الأهالي، وأن شاهد الزور والقاضي الذي يحيد عن الحق ويتابع سبيل الغرض أو يقبل الهدية يلقى من مكان شاهق. وبذلك تحصلت الأمة على المساواة في الأمور المدنية التي لا يوجد عدل أو إنصاف إلا

بها إلا أنها لم تتحصل هذه الدفعة على المساواة في تقلد المناصب، بل ظلت الوظائف منحصرة في طبقة الأشراف، فمنهم القناصل (رؤساء الجمهورية) وأعضاء السناتو والكهنة والقضاة، وكذلك بقي الزواج ممنوعاً بين الأشراف وغيرهم غيرة منهم على عدم الاختلاط مع أفراد الشعب وبقاء المناصب محتركة في طبقتهم، لكن من يتأمل فيما نالته الأمة من الحقوق تدريجياً بثباتها واتحادها يحكم لأول وهلة أن لا بد من حصولها على جميع حقوقها الطبيعية التي كان منحها لها الملك سرقيوس وسلبها إليها تركان، فإن الحقوق لا بد من الحصول عليها يوماً ما مهما اشتدت المعارضات، والنصر ينتهي دائماً للحق ضد القوة، ولو فازت القوة بالغلبة فإلى حين إذ الحق يعلو ولا يُعلى عليه.

وبعد استقالة الحكومة الاستثنائية كما سبق شرحه توجه عضوان من السناتو محبوبان لدى الأمة وهما ڤلريوس وهوراسيوس إلى محل اجتماع الأمة ووعداهما بإعادة انتخاب نواب الأمة العشرة مع حق استئناف جميع الأحكام أمام الأمة، وبالحصول على العفو المطلق عن جميع من اشترك في الهياج الأخير فانشرح الأمة لهذه الوعود، لكنها احتلت قلعة الكاپيتول ريثما ينفذ السناتو ما وعد به، فاستدعي السناتو الأهالي لانتخاب نوابهم فاجتمعوا وتم الانتخاب على الطريقة القديمة ثم انتخب ڤلريوس وهوراسيوس السابق ذكرهما قنصلين وبذلك عادت الأحكام إلى سابق مجريها، ثم استصدر هذا القنصلان عدة قوانين ضامنة حرية الأهالي وعدم مساسها بسوء أهملها أن كل من يسعى في تعين حكام مطلقين تكون أحكامهم غير قابلة للاستئناف يجازى بالموت، وكذلك من يتعدى باليذاء على أحد نواب الأمة، وأن الحكم الذي لا يجمع الأمة في آخر السنة لانتخاب نوابها يجازى بالجلد ثم يقتل، وأن جميع قرارات السناتو ينسخ منها صور يصدق عليها نواب الأمة وتحفظ بهيكل (سيريس) منعاً لحصول الغش والتزوير فيها.

ولما توطدت الحرية وصار لا يخشى عليها قال فرجينوس والد فرجينيا الذي قتلها تخليصاً لها من الواقع في أيدي من لا يصون عرضها ويحافظ على شرفها، واتهم أپيوس رئيس الحكومة الاستثنائية الملاحة أمام الأمة بتحريض المدعى بملكيتها والتحيز له في الحكم قضاء لغرضه، فسجن أپيوس انتظاراً للحكم على ما اقترفه ولتحققه بما سيحكم به عليه قتل نفسه في السجن فراراً من العدالة، وكذلك أحد رفاقه العشرة أما الباقيون الذين ساعدوا أپيوس على استبداده فخرجوا من المدينة خوفاً من المحاكمة وصودروا في أملائهم.

وفي أثناء ذلك حارب هوراسيوس قبائل السابين وانتصر عليهم نصراً مبيناً أوقع الربع في قلوبهم حتى لم يقدموا على محاربة الرومانيين مرة أخرى مدة مائة وخمسين سنة، ولما عاد منصوراً لم يقبل السناتو أن يعمل له موكب حسب العتاد انتقاماً منه لمساعدة الأهالي في طباتهم ضد الأشراف، فقررت الأمة ذلك في جمعيتها العمومية خلافاً للعادة واحتفل به احتفالاً شائقاً، واعتبر هذا القرار قاعدة تتبع في المستقبل وكان هذا الأمر قبل ذلك من حقوق السناتو ليس إلا.

وفي هذه السنة تعددت الأمة على أهم اختصاصات هذا المجلس وهو الإقرار على الحرب الذي كان له دون خلافه حتى في عهد الملوك، وبهذه الطريقة زادت حقوق الأمة كثيراً عن ذي قبل، وكانت كلما تحصلت على حق أو امتياز تنساق بحب التقدم والارتقاء إلى طلب غيره وتثبت في المطالبة بالطرق السلمية تارة وبالهياج والثورة أخرى حتى صارت هي صاحبة القول الفصل والسلطة الحقيقة في الحكومة كما يجب أن يكون الأمر في كل حكومة جمهورية.

ولما ازدادت سلطة الشعب وبالتالي سلطة نوابه (تربيان) ورأى الأشراف أن لا بد من امتدادها سنة عن سنة أرادوا أن يستفيدوا بهذه السلطة ويحولوها لنفعة طبقتهم بحصولهم عليها كلها أو بعضها بالانتخاب، وذلك باستمالة المنتخبين وبذلهم المال والعطايا لهم، فشعر النواب بهذه المساعي التي لا يكون وراءها إلا ضياع كل ما تحصلوا عليه من الحقوق ونالوه من المزايا بعد العناء والتعب، واستصدروا قراراً من الأمة في سنة ٤٧ ق.م. يحجر على الأشراف أن ينتخبو في هذه الوظائف، وأن تبقى محكمة لباقي طبقات الأهالي دونهم.

وفي هذه السنة وجه الشعب اهتمامه لمسألتين عظيمتين كانتا من أكبر المميزات بينه وبين الأشراف، أولاهما احتكار الأشراف لجميع وظائف الحكومة والثانية عدم جواز

التزاوج بين الطبقتين، فتحصلوا في الأولى على بعض الشيء وهو تعيين أمناء الخزينة العمومية وقضاة تحقيق الجنائيات بواسطة الانتخاب العمومي بدون تمييز بين الطبقات؛ أي: من الأشراف أو غيرهم على حد سواء، وكان تعيينهم قبلًا بمعرفة القنصل وهم ينتخبونهم طبعاً من الأشراف لعدم ثقتهم في غير أهل طبقتهم، وأما المسألة الثانية وهي عدم التزاوج بين الطبقتين فتحصلوا في سنة ٤٥ على لغوها بالرلة بهمة النائب كانوليوس وذلك أنه بعد أن تجمهر الأهالي وأظهروا استعدادهم للثورة خضم السناتو لطليفهم لاعتقاده أن الأخلاق والعوائد تمنع تفيذه وتبقي الانقسام الأصلي على حاله، وأن طبقة الأشراف تستمر على عدم الاختلاط بمن هو أدنى منها في اعتقادها، وبعد ذلك طلب الشعب أن يعين من بين أفراده أحد القنصلين واثنان من مراقبى المالية (وكان لهم اختصاص نظار المالية الآن) فحاول السناتو واستعمل الدهاء وقرر أن يعين مراقبو المالية من الأشراف وغيرهم بدون تخصيص فمن الشعب حقاً يسهل عليه حرمانه منه، وفي الواقع لم يعين في هذا المنصب أحد من الأهالي عدة سنوات متوالياً.

وأما مسألة تخصيص إحدى وظيفتي الرئاسة العظمى (قنصلية) بالأهالي والأخرى بالأشراف فراوغ فيها السناتو وصم على رفضها وبقاء الوظيفتين في طبقة الأشراف، لكن لما رأى الماطلة لا تفيده شيئاً، وأنه لا بد له من الرضوخ لطلبات الشعب بأجمعها إن أصر على المعارضة قرر في سنة ٤٤ بتعديل القانون الأساسي بكيفية ترضي الشعب ولا تسلب الأشراف جميع امتيازاتهم، بل تمنح الشعب بعض مزايا ظاهرية تسكن هياجه وتطفئ لهيب اشتياقه إلى تقلد الوظائف العالية ومشاركة الأشراف في المناصب، وبيان ذلك أن يعين ثلاثة موظفون عاليون أو أكثر حسب الأحوال يكون انتقاوهم من جميع الأهالي بدون نظر إلى حسب أو ثروة يقومون مقام القنصلين الذين تلغى وظيفتهما ويعطى لهم لقب (نائب قنصل) لجمعهم بين بعض اختصاصات نواب الأمة وبعض اختصاصات القنصل.

ولا تعطى لهؤلاء الموظفين جميع اختصاصات القنصل، بل تجزأ سلطتهم بين عدة موظفين آخرين يختص بعضها بالأشراف دون غيرهم بحيث لا يبقى لهم إلا الاختصاصات الآتية:

أولاً: يجب أن لا تنحصر قيادة الجيش في أحدهم، بل يكون كل منهم قائداً لفرقة معينة حتى لا تكون لأحدthem سلطة جسمية يمكنه استعمالها لتنفيذ أغراض حزبه أو مطامعه الخصوصية.

ثانياً: القضاء المدني؛ أي: الحكم في المسائل المدنية.

ثالثاً: رئاسة مجلس السناتو والجمعيات العمومية.

رابعاً: وظيفة المحافظة على مدينة روما من كل طارئ خارجي ومراقبة تنفيذ قوانين ونظمات الحكومة.

ثم أنشئت وظيفتان عاليتان تكون اختصاصات من يعين فيما تعداد الأهالي وحصر ثروتهم لتقسيمهم إلى طبقات بحسب غناهم وفقرهم كما سبق شرحه في موضعه، وتحرير قوائم أعضاء السناتو والشوالية والمحافظة على الأمن داخل المدينة.

ومع تقليل اختصاصات وظيفة النواب القنصلين بهذه الدرجة فلم يعين فيها أحد أفراد الشعب إلى سنة ٤٠٠ ق.م. بل بقيت منحصرة في يد الأشراف كما كانت وظيفة القنصل الأصلية، وذلك لعدم تحريم القانون الجديد تقسيمهما بين الأهالي والأشراف وجعلها مشتركة بينهم.

وزيادة على ما ذكر فإن وظيفة القنصل الأصلية لم تُلغَ بالمرة، بل أوقف التعين فيها مؤقتاً، وفي أول كل سنة كان يسأل السناتو الشعب عن رغبته في النظام الذي يرى أن يحكم به هذه السنة أنظام القنصلية القديم أو نظام النواب القنصلين الحديث، وبهذه الطريقة تمكن السناتو بما له من النفوذ والأعوان من إعادة النظام القديم أربعاً وعشرين مرة في مدة الثمانية وسبعين سنة التي مكثها هذا النظام مع ما فيه من الاحتلال وعدم الثبات وتغيير نظام الحكومة من سنة لأخرى ذلك الاحتلال الذي جرأ أعداء روما على التعدي على حدودها، وحمل أصحاب المطامع الذين يتربون الفرص للاستحواذ على السلطة والاستبداد بها على اتخاذ هذا الاعتلal وسيلة لتنفيذ ما تخفيه صدورهم من الأغراض المضرة باستقلال روما والنوايا القاتلة لحريتها.

فمن ذلك ما حصل في سنة ٤٣٧ من أحد الأغنياء إذ توهم أن الرومانيين يفضلون الراحة تحت سلطة حاكم مطلق يعدل بينهم على حالتهم الحاضرة لما فيها من القلق والاضطراب والأخذ والرد بين الأحزاب، فاشترى كثيراً من الغلال وأخذ يوزعها مجاناً على الأهالي ليستمiliهم إليه بسبب إمحال المحصولات وارتفاع أثمانها في تلك السنة، فأوجس السناتو منه خيفة وعيّن سنسناتوس (دكتاتور)؛ أي: حاكماً مطلقاً ليوقف هذه الحركة ويقاوم تيارها ويجازي محازبي هذا الساعي في العبث بحرية وطنه بالعقوبات الصارمة التي تستعيها الحال بدون مراعاة المرافعات والإجراءات العادلة.

فطلب سنسناتوس ليدافع عن نفسه فأظهر الامتناع والاحتماء بمن أحسن إليهم، وقادوا الحجاب الذين أرسلوا للقبض عليه؛ ولذلك اضطر الدكتاتور إلى إرسال قائد

الفرسان لإحضاره قهراً فذهب إليه ولما قاومه وامتنع عن الامتثال لأمره قتله بيده في وسط محاربيه وأنصاره، ثم هدم منزله وبيع ما جمعه من الغلال بأبخس الأثمان، وبذلك انتهت هذه الفتنة واستقال سنستانوس من منصبه المؤقت وعادت الأحكام إلى سابق مجريها بكل هدوء وسكينة.

هذا؛ وكانت الحروب في أثناء تلك الحوادث وبعدها مستمرة تقريباً بين الرومانيين ومجاوريهم، وكان النصر غالباً من جانب جيوش روما ولم يحدث في خلالها من الأمور التي تستوجب الذكر إلا أمران أولهما — توقف القناصل في سنة ٤٢٨ بعد انهزامهم في إحدى الوقائع عن تعين (دكتاتور) لصد الأعداء كما كانت العادة، فاستعاد السناتو بنواب الأمة على إلزمتهم بذلك فلبوا دعوته وكأنوا له عوناً على الأشراف، وهي أول مرة قاوم فيها السناتو الأشراف وأخضعهم بمساعدة الشعب، وبذلك أزداد نفوذ الأهالي وتحصلوا في السنين التالية على عدة امتيازات.

وثانيهما: محاصرة الرومانيين لمدينة (قایه) أهم مدن الاتروسكي، وهي التي أتعبت الرومانيين نحو قرن، ودخولها عنوة في سنة ٣٩٥ ق.م. تحت قيادة فوريوس كامليوس الذي انتصر في عدة وقائع شهيرة، وقد أعقب فتح هذه المدينة خضوع عدة مدن آخرى مهمة، وبعد ذلك عاد كامليوس إلى روما ودخلها في موكب حافل متناهٍ في الأبهة والعظمة، وزاد اعتباره في أعين العموم حتى صار ذا نفوذ عظيم أوجب الريب في نواياه وخيف من تطاوله إلى اغتصاب الحكومة، ولكن الرومانيين كانوا غيرين على حريتهم متمسكين باستقلالهم كانوا يخشون من ظهور أي إنسان وحصوله على محبة الأهالي من أن يعبث بنظام الحكومة ويستأثر بها، ولذلك كانوا يبادرون باتهامه لإنجائه إلى الخروج من المدينة، ولو أدى الأمر إلى انقلابه على وطنه وأهله ومساعدته الأعداء عليهم لعلمهم واعتقادهم أن عدواً أجنبياً مهاجماً خيراً من عدو داخلي ينتحر نظام الحكومة ويقوض أركانها شيئاً فشيئاً، ومما زاد حنق الأهالي عليه معارضته جميع ما يقدمه نوابهم من المشروعات ومساعدة الأشراف على مشروعاتهم فاتهموه في سنة ٣٩٠ ق.م. بارتکاب الرشوة ودعوه للمحاكمة فلم ينتظروا وفضل النفي الاختياري على الوقوف أمام هيئة القضاء وتبرئة نفسه مما نسب إليه.

قد فقدت روما بخروجها قائداً مجرياً وجندياً محنكاً كان يقودها كثيراً ضد أعدائها خصوصاً وكانت أمّة الجلو المعرفة في كتب العرب باسم الجلاقة تحفظ للوثوب عليها كما سيدر مفصلاً في الفصل الآتي.

إغارة الغالبيين (الجلالقة) على روما

الغاليون أمة كانت تسكن في الأصل الأرض المكونة لجمهورية فرنسا الآن ثم ارحل فريق منهم إلى إيطاليا ونزل في شمالها، ومنها انتشروا شيئاً فشيئاً حتى وصلوا إلى قرب روما والمدائن المجاورة لها.

وفي سنة ٣٩٠ق.م. طلبوا من (كلوزيوم) إحدى مداين الاتروسك أن تعطيهم بعض أراضيها، ولما امتنعت حاصروها فاستعان أهلها ببرومة فأرسلت ثلاثة سفراء للتوسط بين الفريقين، ولما قابلوا (برنوس) قائد الغاليين قال له أحدهم: بأي حق تهاجم هذه المدينة ولم يسبق بينها وبينكم عداوة؟ فأجابه بما معناه أن لا حق أمام القوة، فغضب السفراء ودخلوا المدينة المحصورة واشتركوا مع سكانها في الدفاع عنها، وفي إحدى الواقائع قتل أحدهم المدعو أمبوزتوس قائداً غالياً بيده وجرده من سلاحه، فطلب الغاليون محاكمته، ولما امتنع الرومانيون عن إرضائهم تركوا مدينة كلوزيوم وقصدوا روما للانتقام لرئيسيهم، فقابلهم الجيش الروماني على بعد ميل خارج أسوار المدينة، وبعد قتال عنيف انهزم الرومانيون في ١٦ يولية سنة ٣٩٠ بكيفية لم تسبق لهم من قبل وعادوا إلى مدينتهم بدون انتظام، ومن شدة ما داخلهم من الوهم والخوف من شجاعة الغاليين ومنظرهم الوحشي لم يقفلوا الأبواب، ولم يفكروا في إقامة الحرس على الأسوار، بل التجأ فريق منهم إلى قلعة الكاپيتول وتشتت الباقيون شزر مزر في القرى والبلاد المجاورة، وتحصن الحكام وأعضاء السناتو في هذه القلعة بعد أن نقلوا إليها ما بالمعابد من الأشياء الثمينة، ولو تبعهم الغاليون بدون إبطاء لدخلوا القلعة بكل سهولة، لكن شغلهم فرحهم بهذا الانتصار الغير متضرر عن تتميم فوزهم، فصرفوا هذا الوقت الثمين في تجرييد القتلى عن ملابسهم وقطع رءوسهم ولم يدخلوا المدينة إلا في اليوم التالي، فلم يجدوا بها إلا بعض أعضاء السناتو الذين فضلوا انتظار العدو والتعرض للموت على الهروب والالتجاء إلى

المدن المجاورة، فبهت الغاليون من سكونهم والخطر محدق بهم حتى ظنواهم من غير بني الإنسان وليس أحدهم لحية رجل هرم من بينهم، فضريه الشيخ بعصا فقتله العدو ثم سرى القتل في المدينة حتى لم يبق أحد ممن بقي بها، ثم اشتغلوا بنهب المنازل وحرقها بعد تجريدتها، وأخيراً أرادوا الاستيلاء على قلعة الكاپيتول عنوة، وكان الرومانيون قد أتموا تحصينها فردوها عنها بعد أن قتل منهم كثيرون على الأسوار، ولذلك اتفق رؤساؤهم على محاصرتها ومنع المدد والمؤنة من الوصول إليها، واستمر الحصار مدة سبعة أشهر هلك من الغاليين في أثناءها خلق كثير بسبب هجوم الشتاء وعدم وجود حاصلات لترك الأرض بدون زراعة ولتفشي الأراضي فيهم، ولذلك تفرق المحاصرون في القرى والمزارع المجاورة للبحث على ما يقاتلون به، فهاجم اللاتين والاتروسكي كل من مر بأرضهم من الأعداء دفاعاً عن أموالهم، وصاروا يقتلون كل من عثروا عليه منهم وكذلك القائد الشهير فوريوس كامليوس الذي كان هجر روما هرباً من المحاكمة كما سبق شرحه وأقام بمدينة أرديا جميراً من هذه المدينة وقاتل فرقة من الغاليين وهزمها دفاعاً عن وطنه الذي ظل محافظاً على محبته والإخلاص له ولو اضطرته الظروف لهاجرته.

فلما رأى الرومانيون المقيمون بمدينة (قايه) هذا الإخلاص منه عينوه حاكماً مطلقاً وقادياً عاماً مطاردة الغاليين، ثم أرسلوا كومينوس إلى القلعة للحصول على قرار من مجلس السناتو يقضي بأن ترد إليه حقوقه الوطنية التي كان فقداها بسبب مهاجرته وباعتراض تعينه، فذهب هذا الرسول إلى روما وأفرغ جعبه الحيل حتى وصل ليلاً إلى القلعة بدون أن يرآه المحاصرون وتحصل على القرار المذكور وعاد من الطريق التي أتى منها.

وفي الصباح رأى الغاليون أثر أقدام فاقتفوها حتى وصلوا إلى أسوار القلعة وهاجموها فرددوا عنها بعد أن خسروا خسائر جمة، لكن لم يتيسر للرومانيين البقاء في هذه الحالة لتنفيذ المؤنة وعدم إسراع كامليوس بالمجيء لنجدتهم، فاتفق النائب الحربي مع قائد المحاصرين على أن يرفعوا الحصار عن القلعة ويخلوا المدينة ويعودوا لبلادهم بشرط أن يدفع لهم الرومانيون مقداراً من الذهب يبلغ وزنه بالموازين الحالية ٢٢٦ كيلوغراماً وثلث تقريراً، ويقدموا لهم ما يلزمهم من المؤنة وعربات ودواب النقل، فغضش الغاليون في وزن الغرامه ولما لاحظ الرومانيون ذلك عليهم أجابهم القائد (برنوس) قائلاً «ويل للمهزومين» وألقى سيفه ونجاده في الميزان وألزم الرومانيين بدفع ثقلها ذهباً فدفعوه مكرهين.

لكن لما بلغ كامليوس خبر هذه المعاهدة لم يصادق عليها، بل نبذها ظهريًا وأوعز إلى المائين المحالفة لرومة بعدم إمداد الغاليين بشيء وقتل الأبواب أمامهم ومهاجمة ما يلاقونهم من فرقهم، وقتل كل من يتختلف منهم في الطريق، وجمع هو عدداً عظيماً من بقايا الجنود الرومانية وتبعهم في عودتهم، وبذلك قتل كثير منهم ولم ينج إلا القليل وقد بالغ بعض مؤرخيهم في الحادثة وعدوها من الانتصارات المهمة.

وبعد انسحاب الغاليين عاد إلى روما من هاجر من أهلها وما وجدوها خاوية على عروشها وقد التهمت النار أغلب منازلها أرثأى بعضهم تركها ونقل من بقي من سكانها إلى مدينة (فايه) واتخاذها عاصمة لهم، لكن لم يواافقهم الباقيون ولا أعضاء السناتو بل قرروا البقاء في روما وإعادة مبانيها إلى سابق حالها، ثم تقرر منح الحقوق الرومانية إلى أهالي فايه وكاپنيه وفاليريا المفتوحة حديثاً لزيادة عدد الرومانيين وتعويض من نقص منهم أثناء هذه الحرب التي كادت تكون القاضية عليهم وعلى مديتها الباقية لأن رغمًا عن تتبع الفاتحين واختلاف المغيرين.

ومن ثمَّ اهتم الجميع في إعادة بناء المعابد والأماكن العمومية فضررت لذلك الضرائب الفادحة واضطرب الفقراء للاستدانة بالفوائد الباهضة فاشتد الإعسار، وزج كثير من المعرسرين في السجون لعدم إمكانهم القيام بدفع ما عليهم من الديون كما حصل بعد الحروب التي أعقبت تأسيس الجمهورية.

فأراد أحد الأشراف واسمه ميليوس أن ينتهز هذه الفرصة المناسبة لاستماله الأهالي إليه للحصول على إحدى الوظائف العالية إن لم تكن أذاته طمح إلى الاستئثار بالسلطة وتضحيه استقلال وطنه على هيكل أغراضه فدفع ديون أربعينات نفس من المجنونين، وتظاهر بالدفاع عنهم وحضرهم على مقاومة الأغنياء وعدم دفع ديونهم إليهم، فتوجهت إليه الظنون وخيف أن يكون قصده غير صالح فاتهمه بعض نواب الأمة كما اتهم كراسوس وسبوريوس من قبله إلا أنه لما حضر للمحاكمة عُدَّ الواقع التي انتصر فيها على الأعداء وما حازه من علامات الشرف وأظهر آثار ما أصابه من الجروح في الدفاع عن وطنه فبرئت ساحتة، ثم اتهم ثانياً وفاز أعداؤه عليه فحكم عليه بالإعدام، فالتجأ مع أنصاره إلى قلعة الكاپيتول لمقاومة الحكومة وعندما كان واقفاً بقرب صخرة (تربيا) التي يلقى من شاهقها كل خائن لوطنه دفعه أحد من كان حوله من أعلاها فسقط هشيمًا، وبذلك انقضت هذه الفتنة وهدم بيته كما كانت العادة.

حصول الشعب على المساواة في الحقوق السياسية

ولما انقضت الأزمة الشديدة التي أعقبت جلاء الغاليين عن روما وانتهت فتنة منليوس بالكيفية السابق شرحها، وعادت الأحكام إلى نظامها الأصلي، وهدأت الخواطر اتجهت الأفكار إلى محو ما كان باقياً للأشراف من الامتيازات والاستئثار بأهم الوظائف وتقرير المساواة بين أفراد الشعب بدون تمييز بين الطبقات بكيفية تجعل مشاركة الأهالي في الوظائف العالية مشاركة حقيقة لا وهمية كما حصل عند تعديل نظام الحكومة في سنة ٤٤ ق.م. بالطريقة التي أتينا على تفصيلها في موضعه، فقام كل من لسنيوس استولون وسكستيوس حين انتخبا نائبين عن الشعب (تربيان) في سنة ٣٧٦ وقدما مشروع إصلاح جاء فيه:

أولاً: أن لا ينتخب النواب الحربيون من الأشراف وغيرهم؛ الأمر الذي جعل انتخابهم من غير الأشراف نادراً جداً، بل ينتخب قنصلان كما كان قبل سنة ٤٤ بشرط أن يكون أحدهما من الأشراف والآخر من الأهالي.

ثانياً: أن لا يستحوذ أحد على أكثر من خمسين فداناً رومانياً^١ من أطياف الحكومة، وأن لا يطلق في المرعى العمومية أكثر من مائة رأس من البقر أو خمسيناتة من الأغنام، وأن يعطى لكل روماني فقير ما يوازي هكتاراً وثلاثة أرباع من الأرض، وأن كل من يستغل

^١ عبارة عن ١٢٦ هكتاراً فرنساوياً، والهكتار يساوي عشرة آلاف مترًا مربعًا أي نحو فدانين مصريين وثلث (الفدان المصري يساوى ٤٢٠٠ مترًا مربعًا).

جزءاً من أراضي الحكومة يؤخذ منه عشر محصولها ما عدا شجر الزيتون والكرום، فيؤخذ خمس محصولها، وأن يستعمل هذا الإيراد في ترتيب ماهيات لأفراد الجيش.

ثالثاً: أن تحقق ديون الأهالي وذلك بأن كل ما دفع عنها من الفوائد يخصم من الأصل ويقسط الباقى على ثلاث سنوات، فعارض الأشراف حفظاً لحقوقهم السياسية وديونهم، وأصر كل من الطرفين على عدم التسليم للأخر لكن بالطرق القانونية لا الثورية الموجبة لتفرق الشعب وانقسامه على بعضه وإراقة الدماء التي يحق الحفاظ عليها لمحاربة الأعداء فقط، فأعاد الشعب انتخاب نائبه اللذين قدموا هذه المشروعات الثلاثة عشر سنوات متالية رغمًا عن معارضة الأشراف وكانا في كل سنة يقدمان مشروعاتهما ويلحان في طلب تقريرها مع معارضتها الأشراف بعض زملائهم بما يسعى ودسائس الأشراف وأعضاء السناتو، وأخيراً مل الشعب من الانتظار وأظهر رغبته في قبول تقرير مشروعى الأرضي والديون فقط وإرجاء مشروع المشاركة في وظيفتي القنصلية لفرصة مناسبة، فعارض سكستيوس وقال بقبول المشروعات الثلاثة معًا أو رفضها معًا إذ إن فصلها عن بعضها بعد المثابرة عشر سنوات مما يحبط بقدر الشعب في أعين الأشراف، ويحملهم على الظن بأن الأهالي لا يقرون على الثبات أمام معارضتهم، وتكون نتيجة ذلك عدم تقدير طلباتهم في المستقبل حق قدرها والمماطلة في قبولها حتى يسام الشعب ويتركها وتبقى القوة والسلطان للأشراف.

وفي سنة ٣٦٧ توسط القائد الشهير كامليوس وأقنع السناتو بضرورة التصديق على هذه الطلبات العادلة حتى تحصل الأمة على حقوقها، ولا يبقى ثمة سبب للشقاق والانقسام فصدق عليها وانتخب سكستيوس أول قنصل من الأهالي وزال الخلاف وانتهى التنازع على السلطة بعد أن استمر نحو مائة وخمسين سنة، وأقام كامليوس تذكاراً لذلك هيكلًا للمعبد الذي يمثل الوفاق والاتحاد.

ولما صادق السناتو على قبول غير الأشراف في وظيفة القنصلية سلخ عنها بعض الاختصاصات المهمة وخصها بالأشراف، وأوجد وظيفة (پريتور) وجعل من اختصاصاتها إدارة القضاء وتفسير المسائل القانونية مع حق الفصل في القضايا.

وفي سنة ٣٦٥ أنشأ إدارة البلدية وخصصها كذلك بالإشراف وجعل من شأنها ملاحظة الشوارع وأقنية جلب المياه للمدينة والمحافظة على المباني العمومية، وملحوظة الأعياد والاحتفالات والألعاب الأهلية، وبالاختصار كانت اختصاصاتها تقرب من اختصاصات المجالس البلدية الموجودة بقطرنا الآن، فبقي للقنواصل بعد سلخ هذه

الاختصاصات قيادة الجيوش ورئاسة السناتو والخدمة العسكرية إلا أن حق تعيين حاكم مطلق في الظروف الحرجة بمعرفة السناتو أدنى من أهمية الامتياز الجديد الذي منح للأهالي لأن كان يستعمل هذا الحق عند الانتخابات العمومية للتأثير على المنتخبين، وكذلك في الحروب المهمة حتى لا يحتفل بانتصار قنصل من الشعب بالطريقة المتبعة غيره من الأشراف على هذا الامتياز القديم، ولقد أكثر السناتو من استعمال هذا الحق فعين أربعة عشر دكتاتوراً من سنة ٣٦٤ لسنة ٣٦٤ أي: في مدة إحدى وعشرين سنة. وفي أثناء ذلك حصلت حوالي روما عدة حروب كان النصر النهائي فيها للرومانيين بعد أن هربوا عدة مرات، ففي سنة ٣٦٢ تألف اللاتينيون عليها وفازت قبائل الهرننيد على جيوشها وقتلوا قادتهم.

وفي سنة ٤٦٠ أغارت الغاليون^٢ ثانية على أرباض المدينة ووصلوا إلى أحد أبوابها مدحورين، وفي سنة ٣٥٧ هاجمتها سكان مدينة تركوبانيا وهزموا جيوشها وقتلوا قادتهم وذبحوا ٣٠٧ جندياً من الأسرى قرباً لأهفهم، ثم هزموا ماراً بين سنة ٣٥٦ وسنة ٣٥٠ عاودوا وأضطروا في هذه السنة لعقد معاهدة صلح مع روما لمدة أربعين سنة، وفي سنة ٣٥٦ عاودوا الغاليون الكرة عليها فانتصرت عليهم بمساعدة اللاتينيين الذين رأوا أخيراً أن الاتحاد مع الرومانين على محاربة هؤلاء الأجانب أضمن لاستقلالهم وأولى من الانقسام والشقاق، لكن لم تكن هذه الإغارة هي الأخيرة من قبل الغاليين، بل جمعوا قواهم وهاجمواها المررة الأخيرة في سنة ٣٤٩ فانتصر الرومانيون عليهم هذه الدفعة نصراً مبيناً تحت إمرة وقيادة قاتليوس بين كامليوس الذي ردّ إغارتهم الأولى فلم يعودوا إليها، وقد لقب هذا القائد بالغراب تذكاراً لحادثة يرونونها، ويغلب أنها وهمية لا حقيقة لها وهي أنه بارز أحد قواد الغاليين في أثناء القتال، فنزل غراب على خوذته وأخذ ينقره في عينيه ويرفرف عليه بجناحيه حتى لم يتمكن من الدفاع عن نفسه وقتلته قاتليوس.

وفي سنة ٣٤٥ فتح الرومانيون مدينة (سورة) إحدى مدايا الفولسك فزال بذلك المانع الذي كان يعيقهم من التقدم إلى إقليم (كمانيا) التي كانت روما تطمح إلى الاستيلاء عليه لخصوصية أرضه ووفرة حاصلاته.

^٢ عربنا في المزمه السابقة عن الغاليين بلفظة الجلاقة وهو غلط، والحقيقة أن الجلاقة اسم أطلقة العرب على سكان القسم الشمالي من جزيرة الأندلس الذي يسمونه جليقية ويسمى الإفرنج Galicie فالجلاقة أمة والغاليون أمة أخرى.

وبهذه الانتصارات المتواترة والفتحات المتتالية في الخارج وحصول الشعب على المساواة في جميع الحقوق السياسية تقريرًا واستتاب الأمن بسبب ذلك في الداخل صارت الجمهورية الرومانية أقوى الولايات التي كانت تكون لما نسميه الآن بـ مملكة إيطاليا، وداخلها حب امتداد النفوذ والفتحات إلى ما وراء حدودها فساقت الجيوش إلى جميع الحكومات المتاخمة لها وفتحتها شيئاً فشيئاً حتى أدخلتها تحت سلطانها وتعدها إلى غيرها كما سيأتي مفصلاً، ولنذكر الآن بكل إيجاز واختصار الحروب التي كانت نتيجتها بسط سلطة روما على جميع إقليم إيطاليا فنقول.

فتح إيطاليا

من سنة ٣٤٥ إلى سنة ٢٧٢ ق.م.

تنقسم هذه الحروب التي استمرت ٧٣ سنة تخللها بعض سنين صلح وسلام إلى سبعة أقسام، الأول من سنة ٣٤٥ إلى سنة ٣٤١، وكانت نتيجته فتح مدينة (كاپوه) – والثاني من سنة ٣٤٠ إلى سنة ٣٣٨ وفيه تم إخضاع إقليم اللاسبووم موطن قبائل اللاتين – والثالث من سنة ٣٢٦ إلى سنة ٣١١، وفي خلالها فتح إقليماً أبوليا وكمپانيا – والرابع من سنة ٣١١ إلى سنة ٣٠٣ وفيه أخضعت روما كل قبائل الهرنิก والأيك – والخامس من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٢٩٠، وفيه تم إذلال قبائل السمينيين واحتلال جميع أقاليم إيطاليا الوسطى – والسادس من ٢٨٥ إلى ٢٨٠ وفيه فتحت أقاليم إيطاليا الشمالية ما عدا وادي نهر (پو)، واحتل الرومانيون أراضي قبائل الاتروسك والامبريين والغاليين النازلين بإيطاليا – والسابع من سنة ٢٨٠ إلى سنة ٢٧٢ وهو يشمل حروب پيروس التي انتهت باحتلال الرومانيين لأقاليم إيطاليا الجنوبية المعروفة في التاريخ القديم باسم إغريق الكبرى وفتح مدينة ترنتة أهم مدن اليونان (إغريق) في إيطاليا.

ولما كان ذكر الحروب بتفاصيلها وحذفها لا يفيد المطالع سوى الملل ولا يورثه إلا الكلال اكتفيت بما ذكرته آنفاً من نتيجة هذه الحروب فقط لعدم التطويل، خصوصاً وأن إغفالها لا يضيع من ثمرة الكتاب شيئاً ما وحيث كان أهم الحروب ما حصل منها أخيراً مع الإغريق بقيادة زعيمهم پيروس ملك أپيروس الذي استدعته من بلاده لشهرته وشجاعته أردت أن أشرحها بالإيضاح الكافي والبيان الشافى، وتفصيل ذلك أن مدينة توربيوم الواقعة على البحر بالقرب من مدينة ترنتة استعانت بالرومانيين لما هاجمتها بعض مجاوريها،

ولما طلبت سنة 282 أن تكون تحت حمايتها لبُوا طلبها وأعانوها على رد إغارة أعدائها عنها، وأقاموا فيها حامية من جنودهم لإيجادها عند الحاجة فلم تنظر ترنتة إلى هذا الاحتلال بعين الرضى، بل عزمت على انتهاءز أول فرصة لطرد الرومانيين من جوارها حفظاً لاستقلالها وخوفاً من وصول أيديهم إليها.

وبعد ذلك أضافت روما إلى حامية هذه المدينة أسطولاً بحرياً مركباً من عشر مراكب حربية، وفي ذات يوم تجول هذا الأسطول حتى وصل إلى مدخل ميناء ترنتة، وكان الأهالي مجتمعون على الساحل في إحدى التيارات فلما رأوا مراكب الرومان مقبلة ظلوا إنها تريد شن الغارة عليهم، فأسرعوا إلى مراكبهم وخرجوا لحاربة مراكب الرومانيين فهاجموها بشدة وأغرقوا أربعة منها وأخذوا واحدة وقتلوا من بها، ثم ساقهم الغرور إلى مهاجمة مدينة توريوم وطرد حاميتها الرومانية منها بدون إعلان حرب، فلما وصلت هذه الأخبار المكدرة إلى روما أرسلت سفيراً التي ترنتة يطلب من أهلها رد المراكب المأخوذة وتقديم الترضية الازمة عن هذا التعدي، فأهانوا السفير وأخرجوه من بلدتهم بحالة غير مستحبنة، فلم يسع روما بعد هذه الإهانات المتكررة إلا إعلان الحرب عليها وتجهيز الجيوش والكتائب لتأديبها والانتقام منها، وما اقتربت الجيوش الرومانية من ترنته أرسل قائدها إلى أهلها يعرض عليهم الصلح إذا قاموا بالترضية المطلوبة، فمال الأغنياء إلى السلام وعارضهم الشبان والمتطرفون وأبوا إلا الحرب، واستدعوا بيروس من بلاد الإغريق ليرأس جيوشهم فأتى إليهم طمعاً في فتح إيطاليا الجنوبية وجعلها مملكة له، واستصحب معه خمسة وعشرين ألف مقاتل وعشرين فيلاً، ولما وصل إلى ترنتة أمر بغلق التيارات ومحلات الملاهي العمومية وجبر جميع الأهالي على الانخراط في سلك الجندي والتمرن على الأعمال العسكرية، فهاجر كثيراً منهم لحبهم للملاذ وبغضهم للتقشف والتعب، ولتوههم أن هذا الأجنبي يدافع عنهم وهم مرتاحو البال منغمsson في الملاهي والمفاسد، فخشى بيروس شر العاقبة وعرض الصلح على الرومانيين فرفضوه بكل إباء وشهامة غير قابلين توسيط هذا الأجنبي في شئون الجزيرة الإيطالية التي كانت روما تبذل جهدها في نشر لوائهم عليها، وعقدوا الخناصر على مكافحة هذا الدخيل وإلزامه العودة لبلاده، ولما لم ير بدّا من القتال خرج بمن أتى معه من الجنود والتقوى بجيوش الرومانيين بقرب هرقلية وكانت تدور عليه الدائرة لولا أن أزعج الرومانيين منظر الأفيال لعدم رؤيتهم لها من قبل فولوا مدبرين بعد أن قتل منهم نحو خمسة عشر ألفاً وقتل كذلك من جيوش بيروس نحو اثنى عشر ألف مقاتل؛ أي: نحو نصف جيوشه ولتحقيقه من عدم اقتداره على

استمرار الحرب بباقي جيوشه طلب الصلح ثانيةً من روما، وأرسل إليها سينياس الشهير بالفصاحة وقوة الحجة، فسافر إليها حاملاً هدايا فاخرة لأعضاء السناتو وزوجاتهم فلم تقبل منه الهدايا ولم تقدر فصاحت به، بل طلب السناتو جلاء بيروس وجنوده عن إيطاليا أولاً، ثم ينظر بعد ذلك في أمر الصلح، وكفوه بالرجوع إلى مرسله بدون إمهال وتبيغه ذلك وإلا تزحف الجيوش الرومانية لطرده.

فعاد سينياس إلى معسكر بيروس مقتناً بوجوب الجلاء عن هذه البلاد عاجلاً لما شاهده من استعداد الرومانيين واتحادهم على قتاله لآخر نقطة من دمهم، لكن لم يচفع بيروس لنصائحه، بل زحف خلسة بقليل من رجاله ومرّ من بين جيوش الرومانيين قاصداً مدينة روما نفسها مؤملاً الوصول إليها قبل أن يصل الرومانيين خبره فيستعدوا للدفاع عنها، وصار ينهب كلما يمر عليها في طريقه من القرى والبلدان، لكن لما اقترب من روما وجد أهلها قد استعدوا للقاء، وكانت الجيوش التي اقتفت أثره تقطع عنه خط رجعته فعاد مسرعاً إلى ترنتة مكتفيًا بما اكتسبه من الغنائم وجمعه من الأسلحة.

وفي ربيع سنة ٢٧٩ حاصر مدينة تسكولم فأنتasti الجيوش الرومانية لإنقاذها وحاربت جيوش الأعداء بكل بسالة وإقدام وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، لكن لم يقووا على الانتصار عليها وإلزامها رفع الحصار عن المدينة لخوف خيولهم من منظر الأفيال، ومع ذلك فكان بيروس هو الخاسر في هذه الواقعة لموت أغلب جنوده التي أتى بها من بلاد اليونان وعدم قيام الأهالي المستنجدين به لمساعدته، فاضطر لرفع الحاصر عن تسكولم بدون قتال آخر وعاد إلى ترنتة متثيراً في أمره.

وبينما هو على هذا الحال إذ أتاه وفد من اليونان النازلين بجزيرة صقلية يطلبون منه المعاونة والمساعدة على رد إغارة القرطاجيين عليهم، فسافر بكل سرعة لنجدةهم مع من بقي بجيشه مؤملاً النصر بالسهولة على القرطاجيين والعودة لماربة روما بمساعدة يونان صقلية، فنزل بمدينة سيراكوزة وكان القرطاجيون محاصريها ومضايقين عليها الخناق، فحارب المحاصرين وقهراً لهم ثم تبعهم إلى داخل الجزيرة مقتنياً أثراً لهم من مدينة أخرى، وقبل الإجهاز عليهم وطريقهم من الجزيرة وقع الخلاف بينه وبين محالفيه المستنجدين به فتركهم وعاد إلى جنوب إيطاليا لتميم مشروعه الأول وهو امتلاك إقليم ترنتة وماجاوره من البلاد، وعند اجتيازه بوغاز مسينه الذي يفصل جزيرة صقلية عن بلاد إيطاليا هاجمته سفن القرطاجيين وأغرقوا بعض سفنه بمن فيها واستولوا على ما كان معه من الأموال والأشياء الثمينة، ولم ينجُ هو وبقي سفنه إلا بكل مشقة.

ولما عاد إلى ترنته لم يمهله الرومانيون ريثما ينظم ما بقي من جيوشه، بل داهموه بالقرب من مدينة بنفينوتوم (Benvenutum) وانتصروا عليه نصرًا مبينًا لم تقم له بعده قائمة، وكان ذلك لتعود الرومانيين وخ يولهم على منظر الأفياں واحتفل بالقائد كوريوس الذي كان قائداً للجيوش الرومانية في هذه الموقعة احتفالاً عظيمًا حين عودته إلى روما، فدخلها على مرتبة تجرها أربعة من الأفياں التي أخذت من جنود پيروس ضمن الغنائم، ووصل صدى هذا الانتصار إلى مصر فأرسل ملكها بطليموس الملقب فيلادلف؛ أي: محب إخوته، وفداءً إلى روما لتهنئة السناتو والسعى في إبرام معاهدة بين الحكومتين.

هذا، أما پيروس فلما لم يبق له أمل في تنفيذ مشروعه عاد إلى بلاده بخفي حنين مع من بقي من جيوشه تارگا في مدينة ترنته حامية قليلة تحت أمرة أحد ضباطه المسمى ميلون وأثار هو نيران الفتنة في بلاد مقدونية، ونودي به ملگاً عليها ثم قتل سنة ۲۷۲ عند محاصರته مدينة (ارجوس) بعد أن قضى حياته في الحروب والفتنة والسعى للحصول على بقعة من الأرض والتملك عليها.

وبعد انسحاب پيروس ورجاله من بلاد إيطاليا استمرت الحرب بها بين الرومانيين والقبائل الساكنة بجنوب إيطاليا مدة من السنين انتهت بانتصار الرومانيين واستيلائهم على ما بقي مستقللاً بإقليم الجنوب وببلاد اترورية.

وفي سنة ۲۷۲ ق.م. اضطرب ميلون قائد حامية ترنته إلى تسليمها للرومانيين وبذلك امتد نفوذهم إلى أطراف الجزيرة الإيطالية وأشرب الشعب الروماني حب الحروب والفتورات، وصار شعباً حربياً اكتسب جميع الصفات التي تؤهله لذلك في هذه الحروب المستمرة ضد الأجانب، وسُنرى فيما يأتي ما وصلت إليه هذه الدولة من الاتساع وبساطة النفوذ حتى امتد ظل لوائها على جميع الجهات المسكنة في ذلك العهد تقريباً، وكانت أول حروبها الخارجية مع حكومة قرطاجنة الباقية أطلالها للآن بقرب مدينة تونس الخضراء، ولا بأس من أن نذكر طرفاً من كيفية ترتيب الحكومة الرومانية وما حصل فيها من التغيير والتبدل أثناء المدة التي كانت فيها نيران الحرب مشتعلة لفتح جنوب إيطاليا قبل الشروع في تفصيل حروب روما وقرطاجنة وبيان تاريخ هذه الدولة التي لم يسبق ذكرها في هذا الكتاب.

إدارة وتنظيم الأقاليم الإيطالية

قد اتبعت روما مع الأمم التي فتحت بلادها وضمتها إليها سياسة مبنية على الحكم وبُعد النظر والتبصر في العواقب فلم تعاملهم معاملة ملوك وحكومات تلك الأزمان الغابرة لمن تؤخذ بلادهم؛ أي: معاملة الاسترقاق والتملك الحقيقي على الأموال والأنفس، ولم تعاملهم بضد ذلك مرة واحدة؛ أي: لم تمنحهم جميع ما للرومانيين الأصليين من الحقوق، بل اتبعت طريق الرشاد والسداد وعاملت كل أمة بما يناسبها ويضمن بقائها ضمن الجمهورية الرومانية مراعية في ذلك بُعدها عن مدينة روما وقربها منها ودرجة ولائها لها فأعطت القبائل المجاورة لها جميع حقوق الرومانين ليكونوا حاجزاً بينها وبين أعدائها البعيدين، وشكلت منهم اثنى عشرة قبيلة رومانية جديدة، وبذلك بلغ عددها ثلاثة وثلاثين قبيلة، لكنها وزعت أصوات الانتخاب بينها بكيفية تجعل الأغلبية دائمًا لسكان روما الأصليين لحفظ نفوذهم وسيادتهم على باقي الأمم المنضمرة إليهم حديثاً بطريقة غير محسوسة.

ومنحت بعض مدن اللاتين امتيازات خصوصية كانتخاب حكامها وقضاتها وتوزيع الضرائب بين أهلها، وسهلت لهم الت الجنس بالجنسية الرومانية فجعلتها حقاً لكل حاكم أو قاضٍ قضى مدة تقلده الوظيفة بكل أمانة وصدقه ومكافأة لكل من يأتي عملًا جليلاً نافعاً لأبناء وطنه وغير ذلك من الطرق المسهلة للحصول على ما للرومانين من الحقوق؛ إذ كانت تمنح باقي المدن والأمم المفتوحة حديثاً تارة حق الإتجار مع الرومانين والتعامل على حسب نصوص القانون الروماني، وأحياناً حق التزاوج معهم وأونه جميع الحقوق إلا حق الانتخاب حسب الظروف، وبالاختصار فإنها لم تتبع مع رعاياها طريقة واحدة، بل طرقاً متعددة تتغير تبعاً للأحوال والمقاومة التي حصلت منها وقت الفتح، وبعض الأمم لم تمنح شيئاً من ذلك، بل بقيت بالنسبة للرومانين الأصليين كنسبة غير الأشراف لهم قبل حصول هؤلاء عن جميع الحقوق كما سبق بيانه في موضعه.

واتخذت روما طريقة أخرى لتأييد سلطتها على هذه القبائل وعدم تمكينهم من التحالف والاتحاد ضدها؛ وهي أقامة مستعمرات من الرومانيين بين ظهرانיהם تكون كحاميات عسكرية ضد كل طارئ خارجي أو داخلي، ونشر عوائد الرومانيين ولغتهم بينهم من جهة أخرى، وأخيراً بث الدم الروماني في عروقهم بالتزاوج والاختلاط الحقيقي، فيزيد الارتباط بينهم حتى بعد زمن يسير تصر هذه الأمة أو المدينة المغلوبة رومانية حقيقة في الدم والأخلاق واللغة والأفكار والمشارب وينمحى ما كان بينها من الاختلاف والتباین في جميع ذلك وتصير سكان الجزيرة الإيطالية أمة واحدة رومانية عزيزة الجانب قوية الشوكة يمكنها الإغارة على ما وراء حدودها من الولايات والممالك، وصد كل من يتعدى حدودها من الغزاة والفاتحين ولتسهيل المواصلات بين هذه المستعمرات أو النقط العسكرية وبين أطراف البلاد من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب وتشهيل إرسال الجنود إلى أي نقطة يفاجئها العدو أنشأت روما طرفةً عسكرية متسعة ومرصوصة بالأحجار المنحوتة الصلبة، وأقامت الجسور والكتابي الحجرية على الجداول والأنهار التي تقطعها هذه الطرق فكانت فيما بعد من أهم معداتها الحربية كالسكك الحديدية في عصرنا هذا، ولم تزل آثارها باقية لآخر في جميع البلاد التي فتحها الرومانيون شاهدة لهم بحسن الإدارة ودقة التدبير.

الحرب البوئيقية الأولى

هي الحرب التي دارت رحاها وحمي وطيسها بين الجمهورية الرومانية وجمهورية قرطاجة بسبب ادعاء كل منهما السيادة على البحر المتوسط الذي كان مرسحاً لسفن قرطاجة التجارية تشق عباه لنقل السلع والمتأجر إلى جميع البلاد والثغور الواقعة على شواطئه، فإن قرطاجة كانت السيدة الوحيدة على هذه الطريق التجاري، ولما ازدادت فتوحات روما، ووصلت إلى أطراف إيطاليا الجنوبية، واحتلت مدائن ترنته ونابولي وغيرهما من الثغور المهمة، وأخذت في إنشاء السفن الحربية والتتجارية خشيت قرطاجة مزاحمتها لها في التجارة التي كانت مورداً ثروتها وينبعو غناها كما كانت أساس حياة بلاد فنيقيه التي خلفتها قرطاجة في مهنة نقل الحاصلات بين الأقاليم وبعضها مع أنها كانت إحدى مستعمراتها العديدة المنتشرة على سواحل البحر المتوسط وبعض سواحل المحيط الشمالي، ولنذكر هنا لحاماً من تاريخها ونظمها قبل تفصيل ما حصل بينها وبين روما من الحروب التي كانت نتيجتها خراب قرطاجة وسيادة روما على البحار فقط، بل على جميع أقطار أوروبا وشمال إفريقيا وغربي آسيا، وجعل البحر المتوسط بحيرة رومانية تحيط أملاكها من جميع الجهات فنقول:

كانت هذه المدينة عبارة عن إحدى الحلقات المكونة لسلسلة المستعمرات التي أسستها فنيقيه على جميع طرقها البحرية إلا أن موقعها الجغرافي بالقرب من جزيرة صقلية وفي منتصف البحر المتوسط، وعدم وجود جبال خلفها تمنع امتدادها في الداخل ووجود سهول إقليم تونس الخصبة في جنوبها وغير ذلك من المزايا الطبيعية ساعدتها على النمو والارتفاع أكثر من مدينة (صور) عاصمة الفينيقيين نفسها، ولما ظهرت أمة الإفريقية في العالم وتغلبت تجارتها على تجارة صور في شرق البحر المتوسط ازدادت تجارة قرطاجة الجزء الغربي منه، وأخيراً لما اضمحل حالها وسقطت في هوة الانحطاط والتقهقر حين فتحتها الإسكندر

المقدوني سنة ٣٣٢ ق.م. سادت قرطاجة على البحر المتوسط وملكت زمام تجارتة، وبلغت من الغنى والثروة مبلغاً لم تبلغه صور ولا غيرها من قبلها، وفتحت سواحل البلاد المكونة الآن لولية الجزائر ومراكش وإسبانيا وجنوب فرنسا، وأقامت فيها المراكز التجارية لتبادل التجارة مع أهاليها المتممرين في الهمجية والتوحش، واحتلت جميع الجزائر الموجودة في هذا القسم من البحر المتوسط مثل سردينيا وكورسيكا ومالطة وجزائر باليار ولبيارى ونحو ثلثي جزيرة صقلية لحفظ مركزها التجارى وسيادتها البحرية.

ولما كانت هذه الأمة أمة تجارة واكتساب لا أمة حرب وجلاد كانت لا تعد الجنديه فخرًا ولا التقانى في الدفاع عن الوطن مجداً، وكانت تجند الجيوش من الأجانب المستأجرین الذين لا يهتمون إلا بقبض الراتب في ميعاده، وينضمون للفريق الذي يدفع لهم راتباً أكثر من الآخر. نعم إن القواد والضباط كانوا من القرطاجيين إلا أن ذلك لا يكفي لأن تعامل الجيوش المؤلفة بهذه الصفة الجيوش التي أفرادها من نفس الأمة وبالدفاع عنها تدافع عن أراضيها وعائلاتها.

وأما حكومة قرطاجة فكانت جمهورية، إلا أن السلطة لم تكن فيها للشعب بأسره، بل في قبضة بعض عائلات توارثها خلأً عن سلف كما كانت روماً في بادئ أمرها، لكن أدركت روماً ضرورة مشاركة جميع الأهالي في إدارة شئون البلاد فمنحتهم الحقوق السياسية تدريجياً كمارأيت، بل ومنحت نفس هذه الحقوق والمزايا كلها أو بعضها للأجانب المفتتحة بلادهم ونعم ما فعلت؛ لأنها كونت بهذه الطريقة الحكيمية أمة واحدة عزيزة قوية ملكت العالم ولم تتفقه قرطاجة لسوء عاقبة حصر السلطة في بعض العائلات، واستمرت على احتقار الشعب وعدم منحة شيئاً من السلطة، ومن جهة أخرى أساءت معاملة من فتحت بلادهم فكانت تلزم البعض بزراعة صنف معين أو عدم زرعه مراعاة لصالحها التجارى بدون نظر إلى ما يعود على هذه الأمم التعيسة من الخراب والدمار.

وكان يرأس حكومة قرطاجة رئيسان عظيمان يعادلان قنالصل روماً في الاختصاص وكان لقبهما الرسمي (سوفيت) ويليهما مجلس سناتو مؤلف من خمسيناتي عضو ينتخبون من عائلات الأشراف دون غيرهم، وله ما سناتو روماً من الاختصاصات تقريباً، وتنتخب من بين أعضائه لجنة من مائة عضو فقط ينتخبون لمدة حياتهم لإدارة جميع الأعمال تحت رئاسة السوفيت، وكان كل فرع من فروع الحكومة من اختصاص لجنة صغرى تنتخب من السناتو للنظر في شئونها وعرض قراراتها على مجلس المائة فيعتمدها أو يرفضها على حسب ما يرى له. هذا مجلس نظامها الداخلي ويرى لأول نظرة أنه أقل

بكثير من نظام روما؛ فإن هذه كانت تغيره أو تعدله بعًا لظروف الحوادث وطلبات الشعب، وتلك لم تصح لطلباته ولم تحسن معاملة الأمم التي فتحت بلادها. ولذلك كان من المحقق تغلب روما على قرطاجة ولو طال الحرب؛ إذ الجنود المؤجرة لا يكون لها من صفات الثبات والوطنية ما للجنود المأخوذة من نفس الأمة، ولنذكر الآن أسباب انتساب القتال بين الجمهوريتين.

إن جزيرة صقلية كانت منقسمة بين ثلات حكومات متصادرة: الأول تابع لهبيرون صاحب سيرا كوزه، والثاني في قبضة قبيلة المامرتاين وعاصمتهم مدينة مسينه، والثالث وهو الأهم في حوزة القرطاجيين، وفي سنة ۲۶۵ حارب صاحب سيرا كوزه قبيلة المامرتاين لقمعهم ومنع تعديهم على البلاد التابعة له بالنهب والسلب، فقهراهم وكاد يدخل مدينة مسينه لو لا تعرض القرطاجيين له، وفي أثناء ذلك أرسلت هذه القبيلة وفداً إلى روما تستعين بها على صاحب سيرا كوزة، فأسرعت بإرسال الجيوش لنجدتها متخذة هذه الفرصة سبباً لوضع قدمها في جزيرة صقلية وطرد القرطاجيين منها، واستخلصت مدينة مسينه من هبيرون، وكان قد احتلها بحيلة حربية فاتحد مع القرطاجيين على مكافحة الرومانيين خوفاً من املاكهم الجزيرة شيئاً فشيئاً، وحاصروا مسينه لإخراج الرومانيين منها ومنع القرطاجيون وصول المدد إلى الرومانيين من إيطاليا باحتلالهم بوغاز مسينه، لكن توصل القنصل أپيوس كودكس من اجتياز البوغاز في ليلة حالكة مع عشرين ألف مقاتل وانتصر على المحاصرين وتبع هبيرون إلى مدينة سيرا كوزه وابتداً في حصارها، وأرسل إلى روما يطلب الإمداد فأرسلت إليه خمسة وثلاثين ألف مقاتل فشدد الحصار على المدينة، فعرض هبيرون في سنة ۲۶۴ أن يعادهم على دفع مبلغ جسيم، وعلى أن يكون حليقاً لروما ضد القرطاجيين فقبل الرومانيون ذلك وبقي حليقاً لهم مدة خمسين سنة.

ومن ثم تفرغ الرومانيون لحرابة قرطاجة وانتشروا في جميع أنحاء الجزيرة واحتلوا أغلب مدنها حتى لم يبق مع القرطاجيين إلا بعض التغور البحرية، إلا أنهم من جهة أخرى كانوا سائدين على البحار ويشنون الغارة على شواطئ إيطاليا ويمعنون الاتصال بينها وبين الجزيرة، ولذلك قرر سناتو روما سنة ۲۶۱ بضرورة محاربتهم بحراً لمنع تعديهم على التغور وإقلاقهم راحة سكانها وتعطيلهم التجارية، وأمر بإنشاء السفن الحربية فأنشأت مائة وعشرين سفينة في مدة يسيرة على مثال سفينة قرطاجية ألقها الرياح على شواطئ إيطاليا وعين القنصل كورنيليوس سيبينون قائداً عاماً لها، لكن لعدم

تمرن الرومانيين وتدريبهم على القتال البحري انهزمت الدونانمة الرومانية في سنة ٢٦٠، وأخذ سبعة عشرة سفينة، ثم ما لبثوا أن أحسنوا إدارة السفن وتقنوا في ضروب القتال وانتصروا على القرطاجيين نصراً مبيناً تحت إمرة دويليوس.

وينسب بعض المؤرخين هذا الانتصار إلى اختراع غريب ابتدعه هذا القائد البحري؛ وهو جسر من الخشب يركب في مقدمة كل سفينة وبه عدة مشابك وكلاليب من حديد بحيث لما تقترب السفن من سفن الأعداء تلقى هذه الجسور عليها فتشتك معها وتنتقل الجنود إليها بكل سهولة وبذلك تصير الحرب حرباً بحرية لا بحرية، ولا يخفى ما كانت تمتاز به الجنود الرومانية على أعدائها من الثبات وحسن النظام، وهي رواية تحتمل الصدق والذنب نقلناها على علاتها، وكافأ السناتو هذا القنصل بأن أقام في الفورم عاموماً تذكاراً لهذه الحادثة نقش عليه تاريخها بجانب اسمه ومنحه عدة امتيازات أخرى.

ثم انقسمت الدونانمة الرومانية قسمين تبع أحدهما ما بقي من سفن قرطاجة إلى جزيرة سردينيا حيث أجهز عليها، وشرع الرومانيون من ثم في فتح هذه الجزيرة وجزيرة كورسيكا المجاورة لها، والقسم الثاني جعل سواحل جزيرة صقلية ميداناً لأعماله.

ولما حقق السناتو ضعف حكومة قرطاجة وعدم انتظام داخليتها ووقوع الفشل فيها عقب انتصار الرومانيين وانتشار سفنهم في البحر المتوسط؛ قرر تجهيز دونانمة أخرى أكثر انتظاماً واستعداداً لمحاربة قرطاجة في مياهها الأصلية وإنزال الجنود إلى البر لمحاصرتها برياً وبحرياً، فأنشئت ثلاثمائة وثلاثون سفينة جديدة أُنزل إليها مائة ألف بحري وأربعين ألف جندي بري تحت قيادة القنصلين مانليوس ڨولسو واتليوس ريجلوس.

ولما بلغ قرطاجة خبر استعداد هذه السفن وسفرها قاصدة بلادها أرسلت ملاقاتها ومنعها من الوصول ثلاثمائة وخمسين سفينه، فتقابلت الدونانمان بقرب مدينة اكتون واقتلتانا قتالاً عنيفاً كانت الدائرة فيه على القرطاجيين (سنة ٢٥٦ ق.م.). ثم سارت السفن الرومانية قاصدة شواطئ إفريقيا فوصلتها بدون مقاومة، ونزل القنصلان والجنود البرية إلى الشاطئ بالقرب من مدينة كليبيا وانتشروا في جميع الإنحاء كالجراد، ولم يمض قليل زمان حتى احتلوا مداين لا تحصى وغنموا مغامم وأموالاً كثيرة وأسرعوا نحو عشرين ألف مقاتل.

ثم استرجع السناتو القنصل مانليوس وأغلب الجنود وأبقى ريجلوس مع خمسة عشر ألف مقاتل وخمسماية خيال، فاستمر مع هذا الجيش القليل في فتح القرى والبلدان، ووصل إلى مدينة تونس التي لا تبعد عن مدينة قرطاجة بأكثر من ميلين اثنين فقط،

فخشيت الحكومة من أن يحاصر المدينة نفسها ولا قدرة لها على الدفاع وعرضت الصلح على ريجلوس فاشترط شرطًا لا يمكن قبولها لشدةتها وإجهاها باستقلال قرطاجة، ولذلك فضلت الحرب لآخر رقم من حياتها على قبول هذه الشروط وأسعدتها الحظ بوجود قائد ماهر لقدموني الأصل اسمه كسانتيپ ضمن جيوشها المؤجرة المؤلفة من خليط الأجناس المختلفة والأمم المتباينة، فأعاد إلى جيوش قرطاجة بعض الانتظام وبث فيهم روح الحماسة نوعاً وحارب الرومانيين في عدة وقائع صغيرة كان الفوز له في أغلبها، ولم يجسر على محاربهم بكل جيوشه دفعة واحدة خوفاً من الخيبة والانهزام.

ولما تدربت جيوشه على فنون القتال في هذه الواقائع المتعددة وتعودت على الوقوف أمام الرومانيين في موقع النزال هجم بكل قواه على ما بقي مع ريجلوس من الجيوش وبدد شملهم ومزقهم كل ممزق وأخذ ريجلوس أسيراً، وتخلاصت قرطاجة من الرومانيين فإنهم أخلوا بلادها بعد وقوع ريجلوس في الأسر وانتقلت الحرب إلى جزيرة صقلية وشواطئ إيطاليا.

وبقيت الحرب بعد ذلك سجالاً بين الطرفين إلى سنة ٢٥٠ وفيها انتصر الرومانيون على أعدائهم في واقعة (پانورم) بكيفية أوجبت قرطاجة أن تطلب الصلح ثانياً فرفضته روما، واستمر القتال إلى سنة ٢٤٢ التي هزم فيها القنصل لوتابيوس كاتولوس الدونانمة القرطاجية بقرب جزائر ايجات الواقعة على شاطئ صقلية من جهة الغرب وأغرق أغلب سفنها وأخذ باقيها بحيث لم تعد لقرطاجة قدرة على محاربة روما بحراً، ولا على إسعاف جنودها المحاربة في صقلية بالرجال لوقف السفن الرومانية في طريقها فعرضت الصلح ثالثاً، وبعد مخابرات استمرت نحو سنة تم الصلح بين الطرفين على أن تخلي قرطاجة جزيرة صقلية والجزائر المجاورة لها، ولا تتعرض لأهاليها مطلقاً وتطلق سراح الأسرى بدون فدية، وتدفع غرامة حربية توازي تسعه عشر مليون فرنك من العملة الفرنساوية؛ أي: سبعمائة وستين ألف جنيه مصرى تقريباً.

وبذلك انتهت هذه الحرب بعد أن استمرت نحو ربع قرن خسرت قرطاجة في أثنائها سيادتها على البحار، ولحق تجارتها البوار والدمار وذاقت فيها روما لذة الانتصار فسُكِرت بخمرة المجد والفاخر وتأقت نفسها إلى امتلاك البلاد والأمصار، لكن لم تقبل قرطاجة هذه الحالة إلا بصفة مؤقتة لعجزها عن استمرار الحرب وتعطيل تجارتها التي عليها مدار ثروتها، وأيقنت روما كذلك أن هذا الصلح ظاهري فقط وأن لا بد لقرطاجة من الأخذ بالثار وإعادة ما فقدته من الأموال فضلاً عن الشرف في هذه الحرب، فأخذ كل فريق يستعد للحرب ويتأهب له ليكون على استعداد عند انتساب نيرانه ثانياً.

فابتدأت روما بتميم فتح جزيرة صقلية حتى لا يبقى لقرطاجة أمل في استرجاعها، فأقامت فتحها في مدة يسيرة وجعلتها ولاية رومانية وعيت لها حاكماً يلقب (پريتور) مع حفظها استقلال بعض القبائل حفظاً مؤقتاً، ثم احتلت جزيرتي سردينيا وكورسيكا، وتم فتحهما في سنة ۲۲۷ ق.م. فصارت صاحبة السيادة الحقيقة والقول الفصل في البحر المتوسط.

ومن جهة أخرى وجهت أنظارها إلى البحر الأدربياتيكي الذي يفصل بينها وبين جزيرة البلقان الواقعة بلاد اليونان في طرفها الجنوبي، وأنشأت فيه سفناً عديدة لمطاردة قرصان البحر الذين كانوا يعطلون تجارتها ويهاجمون مراكبها في غدوها ورواحها إلى هذه الجهات، وكانت تسكن البلاد الواقعة على شاطئه الشرقي المقابل لسواحل إيطاليا أمّة الأليرين التي كان منها أغلب قرصان هذا البحر، ولما كثرت الشكاوى للسناتو أرسل وفداً إلى (تيتا) الوصية على هذه المملكة لصغر سن ابنها بينياس يطلب منها اتخاذ الطرق الفعالة لمنع أذى رعاياها عن الرومانيين، فكان جوابها قتل أعضاء الوفد.

فلما وصل روما خبر هذه الفعلة الشنعاء أرسل إليها جيشاً جراراً في سنة ۲۲۹ ق.م. احتل أولاً مدينة قنسير بخيانة دمتريوس أحد قواد الأليرين، ومنها انتشرت الجنود الرومانية في طول هذا الإقليم وعرضه ودخلت أغلب مدائنه فاضطررت الملكة (تيتا) أن تسلم لرومأة بطلباتها التي أهمها دفع جزية معينة، والتنازل عن جزء ليس بقليل من أراضيها، ورد ما كان لمدينتي قونسir واپولونيا اليونانيتين من الامتيازات وعدم جواز تعدي سفنها مدينة لسوس.

وبهذه المعاهدة صار لروما ولاية رومانية جديدة بالقرب من بلاد اليونان يمكنها الزحف عليها منها بكل سهولة عند سنوح الفرصة، وصار البحر الأدربياتيكي بحيرة رومانية لامتداد أملاكها على شاطئيه الشرقي والغربي.
ولما بلغ الملك بينياس رشه واستلم زمام البلاد أراد التخلص من سيطرة الرومانيين فهزم وكانت هذه الحركة آخر ما أنتهت به هذه الأمة لاسترجاع ما فقدته من حريتها واستقلالها.

إغارة بعض قبائل الغالبيين على روما

ثم طلب النائب فلامينوس من السناتو تقسيم أراضي الحكومة الواقعة في إقليم سينون على حدود بلاد غاليا الإيطالية بين فقراء الرومانيين؛ ليكونوا حاجزاً حصيناً بين الغالبيين وأملاك روما، فاضطرب الغاليون لذلك وخشووا من تعدى الرومانيين الحدود وطموح أنظارهم إلى الاستيلاء على السهول المتسعة النازلية وتألبوا مع جميع القبائل المجاورة لهم على محاربة الرومان، واستنجدوا بإخوانهم النازليين بغاليا الفرنساوية وساروا قاصدين مدينة روما نفسها بقصد احتلالها كما حصل في السابق، وكانت قوتهم مؤلفة من نحو خمسين ألف راجل وعشرين ألف راكب.

ولما بلغ روما خبر زحف هذه القوة الهائلة عليها أخذت تستعد لللاقاتها بكل قواها، فجمعت نحو مليون جندي خرج منهم مائة وخمسون ألف لمحاربة الأعداء قبل وصولهم إليها وبقي الباقون للدفاع عنها ومساعدة الجيش الأول عند مسيس الحاجة، ثم استشاروا المنجمين فيما يجب عليهم عمله لاستعطاف المعبودات وحملهم على مساعدتهم على الأعداء، فأجابوهم بضرورة ذبح اثنين من الغاليين قربانًا لهم فصدعوا بهذا الأمر الوحشى المبني على اعتقاد وهمى وخرجوا لللاقة الغاليين كالبنيان المرصوص يشد بعضه ببعضًا متهددين على الدفاع عن وطنهم إلى آخر نقطة من دمهم، وانتظروا الأعداء على بعد ثلاثة أيام من المدينة في نقطة حصينة، ولما التقى الجيشان اقتتلوا قتالاً شديداً استمر عدة ساعات، وكانت نتيجته انتصار الرومانيين وموت نحو أربعين ألفاً من الغاليين، وكان ذلك في سنة ٢٢٥ ق.م. لكن لم يكتفى الرومان بهذا الفوز الذي خلص مدينتهم من هذه الإغارة الجديدة، بل قرروا فتح بلادهم إلى جبال الألب لتكون حاجزاً حصيناً وحداً طبيعياً بينهم وبين بلاد غاليا الأصلية، فأرسلت الجيوش إليها تحت قيادة كورنيليون سيبيبون ومسلوس ففتحوا معظمها واحتلوا مدائنها مثل ميلانو، وبارز القائد مرسلوس ملك قبيلة الانسوبيريين

السمى فندومار وقتله، فاستسلمت هذه القبيلة للرومان، ثم أرسل السناتو عدة مئات من العائلات الرومانية لتأسيس عدة مستعمرات بين ظهارنيهم وتنبيت سلطة الرومانيين عليهم.

وفي سنة ٢٢١ استولوا على إقليم (إستيريا) الواقع في شمال بلاد الليريا للتمكن من إيقاف أملاكهم التي على شاطئ بحر الأدرياتيك وللإغارة على بلاد اليونان في المستقبل. وزيادة على جميع ما ذكر من الفتوحات المهمة طمحت أيضًا روما إلى بلاد مصر والشام، وجددت تحالفها مع ملوك البطالسة في مصر وحصلت بين الحكومتين مخابرات بشأن إرسال جيوش رومانية إلى الشرق لمساعدة الحكومة البطليموسية على محاربة ملوك إنطاكية بالشام، لكن لم يتم بينهما أمر بهذا الخصوص وتأجل التداخل في شؤون مصر والاستيلاء عليها إلى فرصة أكثر مناسبة.

فيتضح للقارئ أن روما لم تُضعِّ الوقت بعد إبرام الصلح مع قرطاجة، بل صرفت كل قواها لافتتاح ما بقي من إيطاليا الشمالية لسد أبواب الغارات أمام الغاليين، واستولت على جزائر سردينا وكرسيكا وبعض الجزر الصغيرة المجاورة لها لمنع هجوم القرطاجيين على أراضيها من جهة البحر، وجعلت البحر الأدرياتيكي بحيرة رومانية باستيلائها على إقليمي إليريا وإستيريا.

وبذلك صارت آمنة من مفاجأة القرطاجيين لها ومستعدة للاقاتهم لو أتواها من جهة غيرمنتظرة، وكانت في استعداد عظيم لمحاربة هذه الجمهورية القائمة أمامها والانتصار عليها حتى تكون هي الدولة الوحيدة في العالم وملكة البر والبحار ومملكة زمام الأمصار بدون شريك منازع أو معارض أو مضارع.

وحيث انتهينا من ذكر ما أنتهت روما من الأعمال العظيمة والفتاحات الجسيمة في هذه المدة الوجيزة استعدادً لمنازلتها جارتها وعدوتها ومناظرتها قرطاجة، فلنbin الآن ما أنتهت هي الأخرى لهذه الغاية نفسها وما حدث فيها منحوادث المهمة، ثم نشرح الحرب البونيقية الثانية وأسبابها ونتائجها شرحاً يوقف القارئ على ماجريات هذه المناظرة الدولية التاريخية القديمة فنقول:

قد ذكرنا عند التكلم على حكومة قرطاجة ونظمها أن جيوشها لم تكن وطنية أهلية، بل مؤلفة من مستأجرين مختلفي الأجناس متبايني الملل والنحل لا تجمعهم جامعة وطن أو جنس، وظاهر أن تركيب جيوشها وتأليفها بهذه الصفة مما يجعلها أقل بكثير من حيث الغيرة والحمية من الجيوش الرومانية المؤلفة من الرومانيين دون غيرهم.

وقد ظهر هذا الفرق العظيم في الحرب البونيقية الأولى وزادت مصارعه بعد انتهاء حرب قرطاجة وقبولها طلبات روما، وذلك أن الحكومة عجزت عن دفع مرتبات الجنود في أوقاتها بسبب ما أصابها في هذه الحرب المشؤومة، ولما كانت هذه الجيوش لا يهمها إلا قبض الراتب (شأن كل أجنبى دخيل استخدم في غير وطنه) ولا ترى لما أصاب قرطاجة من المصائب حاجت وماجت وأكثرت من الشغب، ثم أظهرت التمرد والعصيان وساعدتها بعض الأهالى لتضجرهم من كثرة الضرائب ووقر المكوس واشتدا الهياج في جميع الجهات التابعة لقرطاجة خصوصاً في جزيرتي سردينيا وكورسيكا، الأمر الذي ساعد الرومانيين على الاستيلاء عليهم بدون كثير عناء.

وكان رؤساء الثورة كل من اسينيديوس الإيطالي الأصل وماطوس الإفريقي، ولما عمت الجيوش تقريباً تحيرت الحكومة فيما يلزم اتخاذه من التدابير، وانقسم السناتو حزبين أحدهما تحت رئاسة هاتون وكان يود مسالة العصابة بأى طريقة، والآخر يطلب إخضاعهم بالقوة، وبعد جدال عنيف تغلب هذا الحزب الأخير باجتهاد أعضاء عائلة (برقة) فعينت الحكومة املكار أحد زعماء هذه العائلة قائداً لمن بقي مصافياً لها من الجنود، وأباحت له اتخاذ الطرق الممكنة لقمع الثورة، فابتداً هذا القائد المدرب والسياسي المجرب في استمالة قبائل (النوميد) إليه حتى لا يمدوا العصابة بالمؤونة، ثم حاربهم بشدة حتى أذمهم رفع الحصار عن مدينة (أتيك) والابتعاد عن ضواحي قرطاجة، وكان يعامل من يقع بين يديه من الأسرى بالحسنى وزيادة ويدق عليهم العطايا، ففرّ كثير من جنود العصابة للانضمام إليه، ولما خشي رئيساً الثورة من نتيجة فرار الجنود أمراً بقتل أسرى القرطاجيين فقتلوا وكانوا سبعمائة، فعامل املكار أسراه بهذه المعاملة الوحشية ثم حصر أحد الجيшиين الرافعين راية العصيان في مضيق حرج المسلط وشدد الحصار عليها مدة طويلة حتى نفدت مؤنتهم وأكلوا من عندهم من الأسرى والعبيد، ولما ضاق بهم الحال مالوا إلى الصلح وطلب قائدهم اسينيديوس مقابلة (املكار)، ولما أذن له قصده ومعه اثنان من كبار ضباط العصابة وعرضوا عليه التسليم فقبل مشترطاً إرجاع العصابة إلى أوطانهم بعد تجريدهم من السلاح، واستثناء عشرة فقط من هذه الشروط، فلما قبل الوفد بذلك قال املكار أنتم الثلاثة من ضمن العشرة وقبض عليهم وقتلهم صلباً.

وعندما وصل خبر إلقاء القبض على أعضاء الوفد الثلاثة على مسامع العصابة المحصورين في المضيق بدون أن يعلموا بتفاصيل الاتفاق ظنوا أن املكار غدر بمندوبيهم، فاستعدوا فوراً للقتال وهاجموا القرطاجيين مهاجمة يائس لاأمل له في النجا وظلوا يحاربون حتى قتلوا عن آخرهم، ويقال: إن عددهم كان يبلغ أربعين ألفاً.

وبعد إبادة هذا الجيش العظيم جمع املکار كل قواه ضد الجيش الثاني الذي كان تحت قيادة ماتوس رئيس الثورة الثاني وانتصر عليهم، وقتل منهم عدداً عظيماً، وأخذ زعيمهم أسيراً وأرسله إلى قرطاجة حيث قتل بعد أن شهروه في الشوارع وأهانته العامة وجعلته أضحوكة، وبذلك انتهت هذه الحرب الداخلية بعد أن استمرت زيادة عن سنتين كانت فيها قرطاجة في أخرج المراكز وأشد المضايق حتى رثى لها الأعداء وساعدها هيبرون صاحب سيرا كوزه بمال والرجال وعرضت عليها روما المساعدة والمعاونة وأباحت إرسال الغلال إليها.

لكن لا يظن القارئ أن هذه المساعدة كانت حباً في بقاء سوؤد قرطاجة وعظمتها، بل خوفاً من أن يسود فيها العنصر الحربي لو انتصر العصاة وتزيد قوته ومنعة فيصعب عليها تنفيذ ما كانت تضمره لها من المقاصد العدائية، وانتهت هذه الحرب الداخلية سنة ٢٣٨ ق.م.

وبعد انتصار املکار على العصاة بهذه الكيفية زاد نفوذ عائلة برقة زيادة عظمى حتى صارت صاحبة الكلمة النافذة والقول الغير مردود في مجلس السناتو وجميع فروع الحكومة، فخشى السناتو سوء عاقبة هذا التداخل الذي ربما يؤدي إلى إسقاط الحكومة الجمهورية واغتصاب هذا القائد للسلطة.

وقرر بإرسال املکار وجيوشه لفتح بلاد إسبانيا لتكون عوضاً عن جزائر صقلية وسردينيا وغيرها التي احتلها الرومانيون، ولإبعاد املکار عن قرطاجة فسافر إلى إسبانيا وأخضع في طريقه سواحل بلاد الجزائر ومراکش ومكث بإسبانيا مدة تسع سنوات قضاهما في محاربة الأمم المختلفة النازلة بها وإلزامها بالاعتراف بسيادة قرطاجة عليها، وقتل في إحدى الوقائع الحربية سنة ٢٢٩ وينسب إليه تأسيس مدينة برشلونة التي تسمى باللاتينية (برسينه) تخليداً لاسم عائلة برقة.

وبواسطة مسامي عائلته في السناتو تعين بدله (ازدروبال) زوج ابنته لتبقى هذه الوظيفة الخطيرة في عائلتهم، فسافر إلى إسبانيا واستمر في محاربة سكانها وإخضاعهم إلى أن وصل في سيره إلى نهر (ابر) في سنة ٢٢٧ فتوّجس الرومانيون خيفة من تقدمه السريع، وأبرموا معه معاهدة تلزمها بعدم تعدي هذا النهر فأخذ في تنظيم ما فتحه من البلاد، وأسس مدينة قرطاجنة في موقع تجاري مهم جداً لقربها من ساحل إفريقيا الشمالي ومن المعادن التي كان يستخرج الفينيقيون الفضة منها.

وأصلاح ميناها وأقام لها الأرصفة والمخازن التجارية وبنى لنفسه سراية عظيمة أخر من سرايات ملوك هذا الوقت، وصار يعتبر نفسه بأنه ملك مستقل بإقاليم إسبانيا

إغارة بعض قبائل الغاليين على روما

واستمر على هذا الحال إلى أن قتله في سنة ٢٢١ ق.م. رفيق غالى الأصل أخذ بثار سيده الذي كان قتله ارذروبال غدرًا وخيانة. فانتخب الجيش لقيادته انبيال بن املكار بدون انتظار أوامر السناتو من قرطاجة، ولما بلغ الحكومة خبر انتخابه بهذه الصفة الغير قانونية لم يسعه إلا التصديق عليه خوفاً من عصيان الجيش واستقلال انبيال بإسبانيا التي أصبحت إدارتها بهذه الكيفية وراثية في عائلة برقة.

الحرب البوئيقية الثانية

علم القراء مما تقدم أن أملاك قرطاجة كانت ممتدة على سواحل البحر الأبيض المتوسط من إقليم طرابلس الغرب مما يلي حدود مصر من جهة الغرب إلى مصب نهر إبرير بإسبانيا؛ أي: على مسافة تسع مائة فرسخ تقريباً، لكن كانت سلطتها فعلية على السواحل فقط غير ممتدة إلى داخلية هذه الأقاليم المتشعة التي تسكنها عدة قبائل متبربة، فكان يسهل على أعدائها إنزال جيوشهم إلى أي نقطة أرادوا إن كانوا آتين من الخارج، أو على احتلال السواحل إن كانوا من القبائل الداخلية؛ إذ إن قرطاجة كانت لا تهتم مطلقاً بإخضاع البلاد التي تفتحها إخضاعاً حقيقياً، بل تكتفي بإلزامهم بمشترى بضائعها والاتجار معها فقط، هذا من جهة حكومة قرطاجة ومستعمراتها.

أما الحكومة الرومانية فكانت على الضد من ذلك بالكلية في غاية الانتظام متقاربة الأجزاء تربطها السكك الحديدية وتتخللها المستعمرات، وغالب سكانها تجنسوا بالجنسية الرومانية بحيث صاروا أعضاء عاملين في الحكومة كسكان روما نفسها لا رعايا مستعبدين إلا اليسيير منهم هذا فضلاً عن عدم التبادل الشديد في العوائد واللغات؛ إذ إن سكان إيطاليا أجمعوا كانوا من أصل واحد تقريباً، وتغلبت عليهم عوائد الرومانين فصار الكل جسمًا واحداً ومدينة روما بمثابة القلب لتوسط مركزها.

وباحتلالها الجزائر القريبة منها صارت آمنة من هاجمة الأعداء بحرراً؛ إذ كانت تلك الجزر كنقطة أمامية تمنع كل عدوٍ مفاجئ، وباحتلالها شواطئ البحر الأدرنياتيكي الشرقيية انتقت شر الأليرين وأخضعتهم وصارت قريبة من بلاد الإغريق.

كل هذه الأسباب والدواعي كانت تميز الحكومة الرومانية عن القرطاجية وتتضمن لها الفوز عليها بكل تأكيد.

تلك كانت حالة هاتين الدولتين المتناظرتين المتنازعتين للسيادة على البحر الأبيض المتوسط والبلاد الواقعة على شواطئه في سنة ٢١٩، ولذلك كانت قرطاجة تخشى مهاربها، وتتوقى الأسباب التي توجب الشحنة والنفحة والجفاء بين الحكومتين لعدم وثوقها من الفوز والانتصار.

أما انبیال قائد جيوش إسبانيا فلم يكن من هذا الرأي، بل كان يعتقد الفوز والنجاح على الرومانيين ويطمع في مهاربهم لفتح بلاد غاليا الجنوبية وإيطاليا نفسها إن أمكنه ويجعل نفسه ملّاً مستقلّاً عليها فصرف جل اهتمامه لإخضاع القبائل الإسبانية المستوطنة في الجبال الوسطى واحتل مدينة طليطلة، وما تأكّد من خصوص سكان إسبانيا وأمن نزعوهم إلى الثورة لو ترك بلادهم لمحاربة الرومانيين جهز جيشاً جراراً من نحو مائة وخمسين ألف مقاتل وحاصر مدينة (ساجونت) الواقعة على شاطئ نهر الإبر، والتي كانت اشتهرت في المعاهدة التي بينها وبين ازدروبال في سنة ٢٢٧ق.م. حفظ استقلالها وعدم مس حريتها قاصداً بنكث هذا العهد والخروج عن نصوصه إلزام روما بمحاربته، ثم شدد عليها انبیال الحصار ودخلها عنوة بعد ثمانية أشهر فوجدها مشتعلة بالذيران؛ إذ إن أهلها فضلوا حرقها وتدمرها عن تسليمها إلى الأعداء.^١

ولما علمت روما بهذا التعدي المخالف للعهود والمواثيق أرسلت وفداً إلى انبیال تذكره بها وتحذره سوء العاقبة، وأخر إلى قرطاجة لاستصدار الأوامر إلى هذا القائد بالعدول عن محاصرة (ساجونت) فعاد الوفدان بلا فائدة.

فأرسلت بعض أعضاء السناتو ثانياً إلى انبیال، وكان من ضمنهم شهم يدعى (فابيوس) فلم يصح إلى طلباتهم وأصر على عناده وتمادي في غروره فقال له فابيوس: إنني أعرض السلم وال الحرب عليك فاختار أيهما يحلو لديك، فأجابه انبیال: إن الاثنين عندي سواء فاخترت أنت ما تريده، فقال فابيوس: الحرب، وعاد هو ومن معه إلى بلاده وكان

^١ هكذا فعل الروسيون سنة ١٨١٢ بعد المسيح في مدينة موسكو التي تلي عاصمتهم سان بطرسبروج في الأهمية حينما أغارت عليها الفرنساويون تحت قيادة ناپلليون الأول عندما رأوا أن لا مناص من دخول الفرنسيين إليها واحتلالها فحرقوها حتى لا يمكن للجيش الفرنسي أن يقضي فيها فصل الشتاء القارس في تلك البلاد كما كانت عزيمة ناپلليون، فيضطر إلى القهقرى والعود إلى الغرب للتحصن في نقطة أخرى ويمكن للروسين حال تقهقره الانقضاض عليه والفتاك بجيشه، وقد نجح تدبيرهم وقتل أو مات من البرد نحو ثلثي الجيش الفرنسي، وكانت هذه الهزيمة ابتداء أفال نجم ناپلليون الأول.

ذلك هو سبب الحرب البوينيقية الثانية التي استمرت ثمان عشرة سنة وكانت عاقبتها وخيمة جدًا على قرطاجة فقد فقدت فيها أهم جيوشها البرية والبحرية وجزيرة إسبانيا حيث فتحتها روما وأدخلتها ضمن أملاكها، وصارت قرطاجة عرضة لهجمات الرومانيين لا سفن ولا جنود تمنع وصولهم إليها أو شن غاراتهم عليها.

وبمجرد إشهار الحرب بالكيفية السابقة ساق أنبيال جيوشه إلى جبال بيرينيه الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا؛ لأنّه اتخذ في هذه الحرب للوصول إلى بلاد الرومان طريقاً لم يسلكه أحد قبله وهو طريق البر من جنوب فرنسا إلى إيطاليا؛ وذلك لتعسر الوصول إليها بحراً بسبب احتلال الرومانيين أكبر جزائر البحر الأبيض المتوسط وأغلب جزائره الصغيرة.

ووصل أنبيال إلى جبال الألب الفاصلة بين فرنسا وإيطاليا بعد أن حارب أغلب القبائل والأمم الواقعة على طريقه، ولم يلتفت إلى الجنود التي أرسلها الرومانيون إلى مرسيليا لقطع خط الرجعة عليه، ولم يحاربهم بل جد في اجتياز جبال الألب الوعرة المسالك الضيقة المفاوز لا تعوّقه وعورتها ولا توقفه صعوبتها، بل كان يفتح الطرق ويوسّعها لمرور جنوده غير مبالٍ بما يت肯ده من المتابع وبهلك في هذه الأعمال الشاقة من الرجال والدواب ناظراً إلى الإمام فقط شأن أولي العزم من الرجال وأولي الحول والقدرة من القواد حتى اجتاز هذه الطريق التي لم يسلكها جيش قبله، ولم يصل إيطاليا إلا بنصف جيشه وهلك البالقي في الطريق البعض من محاربة القبائل التي اعترضته والباقي في مضائق الألب.

وبمجرد وصوله شمال إيطاليا عاقب قبيلة (تورين) على عدم مساعدتها له ودخل مدینتهم عنوة وجعل عاليها سافلها.^٢

ولقد أدهشت الرومانيين هذه السرعة العجيبة حتى عدلوا عن مشروعهم الأول وهو إرسال الجيوش إلى نفس قرطاجة حتى يضطر أنبيال إلى العودة إليها لحمايتها، واستدعى السناتو القنصل سempreونيوس (Semprenius) بعد أن انتصر على مراكب القرطاجيين

^٢ هي مدينة تورينو الجميلة واقعة في شمال إيطاليا على نهر الپو وبها مباني شاهقة وأثار فائقة يبلغ عدد سكانها أربعين ألف نسمة، وهي معروفة من أشهر مدن العالم وبها كنيسة قديمة بُنيت في أوائل القرن الخامس للميلاد، وتفخر على باقي بلاد إيطاليا بأنها وطن (كافور) السياسي الشهير الذي كانت له اليد الطولى في توحيد إيطاليا في القرن التاسع عشر.

واحتل جزيرة مالطة واسترجع القائد سيببيون من غاليا (فرنسا) وجمع جيشاً بآعلى إيطاليا لصد انبيال وإيقافه في سيره نحو روما.

فانتصر انبيال على سيببيوس بالقرب من نهر (تسينو) وجرح القائد الروماني فتقهقر بجيشه إلى ما وراء نهر (بو) وانضم بجيشه إلى القنصل سمپروننيوس وتحصن في موقع منيع على نهر (تريبيبا) فاحتلال عليهم انبيال حتى أخرجهم من هذا الموقع الحصين وانتصر عليهم نصراً مبيناً بعد قتال شديد قتل فيه على ما جاء في كتب الثقاة ثلاثون ألفاً من الرومانيين، ولم ينج سمپروننيوس من بقي معه إلا بعد أن زهقت النفوس وتناثرت الرءوس ودخل ببقايا جيشه إلى مدينة (پليزانس) حيث حاصره القرطاجيون (ق.م. ۲۱۸).

وبعد هذا النصر العظيم قصد انبيال أن يجتاز جبال (اپينيتو) الحائلة بينه وبين روما، لكنه لم يتمكن من إتمام مشروعه لدخول فصل الشتاء وترابك الثلوج في مضائق هذه الجبال.

وبسبب انتصاراته السريعة انضم إليه كثير من الغاليين القاطنين في شمال إيطاليا طمعاً في الغنيمة وأتوا إلى معسكره أفواجاً حتى عوضوا أغلب من قتل من رجاله في هذه الحروب المتواصلة ضد الطبيعة تارة وضد الرومانيين تارة أخرى.

وبمجرد ما ابتلخ فجر الربيع وذابت الثلوج وسهل المرور نوعاً شرع انبيال في الزحف على روما، وسار من أقصر الطرق ولو أنها أصعبها احتيازاً إذ كان يلزم المسير ثلاثة أيام في وسط مستنقعات وأدغال، لكن لم تُبعد هذه الصعوبات همه، بل اجتازها كما اجتاز جبال الألب وتغلب عليها كما تغلب على جميع الواقع التي اعترضته من قبل.

كل ذلك والرومانيون لم يبدوا أقل اهتمام يمنعه من التقدم، بل تربصوا له بجيشه بالقرب من بحيرة (تراسيميون) المسمى الآن بحيرة (پيروزه) تحت قيادة قائدتهم الشهير (فلامينيوس).

ولقد استعمل معه انبيال ما استعمله مع القواد السابقين من الحيل ومتى أخرجه من محل استحكامه وانتصر عليه بقوة فرسانه المشهورين في موقعة هائلة لم تستمر سوى ثلاث ساعات قتل في أثنائها القائد الروماني وخمسة عشر ألفاً من رجاله وأخذ قدرهم أسراء وفر الباقون يبكون إخوانهم ويندبون حظ بلادهم (قبل المسيح ۲۱۷).

وبعد هذا الانتصار العظيم لم يجسر انبيال على الزحف على مدينة روما التي كان لا يبعد عنها إلا بمقابل مائة كيلو متراً لعلمه باستعداد أهلها للدفاع عنها والتهاك في الذود

عن حوضها حتى الممات، ولما أصاب جيوشه من النصب والتعب في هذا السير السريع والحاربات المستمرة.

فلهذه الدواعي والأسبابرأى من الحكم والصواب أن يتربص مدة شتاء تلك السنةريثما تستريح جيوشه مما ألم بها من المتابع وتنقى خيوله مما لحقها من المشاق، ولكي يستميل إليه بعض القبائل التي ضممتها روما إليها حديثاً ولم تقو علاقتها وروابطها معها خصوصاً سكان إيطاليا الجنوبية المسماة (إغريق الكبرى) كما استمال سكان شمال إيطاليا الغاليين.

أما الرومانيون فلم ترعنهم هذه المصائب المتواصلة ولم تؤثر على شجاعتهم ووطنيتهم هذه الكوارث المتعاقبة، بل جمعوا الجيوش والكتائب وقرر السناتو أن الوطن في خطر وعين القائد (فابيوس) رئيس طائفة الأشراف حاكماً عاماً مطلقاً (دكتاتور) لمدة ستة أشهر وعين (مينوسيوس) قائداً للفرسان إرضاء للشعب حتى لا يظن بالسناتو سوءاً. وكانت طريقة فابيوس في الحرب التسويف وعدم التورط في الحرب ما لم يكن متحققاً من الظفر والنصر على الأعداء.

ولقد سعى انبیال كثيراً في إغرائه على قبول المحاربة في السهول الواسعة التي يسهل فيها على فرسان قرطاجة الهجوم على الرومانيين فلم يفلح ولم يتبعه إلى السهول مطلقاً، بل اعتمد بالجبال متربصاً الفرصة فينتهزها بدون تراخ أو توانٍ.

وبالغ فابيوس في الحذر والتوقى من مقابلة جيوش انبیال حتى رماه أعداؤه بملائمة العدو والاتفاق معه على خيانة الوطن وأهله، وساعد قائد الفرسان (مينوسيوس) على إذاعة هذه المفتريات ليعلن حاكماً عاماً بعد انتهاء مدة فابيوس.

ولقد تحصل على بعض مطامعه إذ جعل قائداً مشاركاً في الرئاسة لفابيوس بأن تكون القيادة العامة لكل منهما يوماً بالتعاقب، فحارب مينوسيوس القرطاجيين وهزم، وكاد انبیال يجهز على الجيش الروماني لولا مساعدة فابيوس له وإرشاده بنصائحه. ولما انتهت مدة الحاكم العام عادت الأحكام الدستورية وانتخب قنصلان لهذه السنة، فانتخب حزب الأشراف (پول امبل) لكونه على رأي فابيوس في زيادة التحذر وعدم المخاطرة بالجيوش، وانتخب الحزب الأهلي (ترنتيوس قارون) قنصلًا ثانياً فكان الأول يميل على التسويف ويرغب الثاني في التعجيل بالحرب.

وبسبب هذا الخلاف بين الرؤساء تطرق الخلل إلى الجنود، وصار كل منهم ينقض ما قرره زميله في يومه حيث كانت القيادة بينهما مناوبة.

وفي يوم ٢٦ أغسطس سنة ٢١٦ قبل المسيح كانت القيادة لقارون فاقترب من جيش انبیال حتى التحم الجيشان وحصلت بينهما موقعة هائلة بالقرب من مدينة (کان)^٣ كان الفوز فيها للقرطاجيين كما كان لهم في الواقعتين السابقتين بفضل فرسان الإفريقيين الذين كان يبلغ عددهم عشرة آلاف؛ أي: خمس الجيش بأجمعه البالغ خمسين ألفاً. أما جيش الرومانيين فكان أكثر من جيش العدو عدداً بما يوازي الضعف، لكن لم يكن بينهم أكثر من ستة آلاف فارس.

ومع أن انتصار القرطاجيين كان في جميع مواقعهم السالفة مسبباً عن كثرة عدد الفرسان لم يلتفت قواد الرومان لهذا الأمر الخطير، ولم يستفيدوا مما ألم بهم بسبب قلة فرسانهم ولم يزيدوا عددهم بالنسبة الموجودة في جيش انبیال؛ إذ لو روعيت هذه النسبة لكان يلزم أن يكون في جيش الرومان عشرون ألف فارس لا ستة آلاف.

وقد قدر المؤرخون قتلى الرومانيين بين خمسين وسبعين ألفاً والأسرى عشرة آلاف.

وقال الخبريون بفنون الحرب والقتال إنه كان من السهل على انبیال أن يزحف على مدينة روما فاحتلها بدون كثير عناء بسبب ما لحق سكانها من الاضطراب والخوف عقب وصول خبر هذا المصاب العظيم إليهم، لكن منعه عن ذلك اشتغال جنوده بجمع الأسلاب والغنائم وبيعها والاتجار بالأسرى والأرقاء، وصرف غالب أوقاتهم في مغازلة الحسان ومعاقرة بنت الحان فرحاً بما نالهم من النصر المبين والفوز العظيم، ومن جهة أخرى كان جزءاً ليس بقليل من جيشه من غير القرطاجيين مؤلفاً من خليط جميع القبائل التي مالت إليه لا طلباً للمجد والفاخر، بل سعيًا وراء الكسب والغني.

ولذلك خشي التقدم إلى الأمام لعدم تأكده من إطاعة الأجراء من جنوده لأوامره، ولتحقيقه من أن جميع سكان مدينة روما يكونون يداً واحدة في الدفاع عنها لا فرق في ذلك بين الرجال والنساء والأحرار والأرقاء، وأنهم لا يدعونه يطاً أرض المدينة ما دام في عروقهم قطرة من الدم.

فلهذه الأسباب فضل الترخيص في جنوب إيطاليا والسعى في استئمالة سكانها إليه ليكونوا له أعوناً على الرومانيين، خصوصاً وقد نقص جيشه نقصاً بليغاً حتى صارت

^٣ مدينة بإقليم إيطاليا وهي غير مدينة كان الشهيرة بجودة إقليمها واعتدال هوائتها الواقعة على البحر المتوسط بجنوب فرنسا ويقصدها السواح في فصل الشتاء.

الأغلبية فيه للأجراء وصار من المستحيل وصول مدد إليه من قرطاجة بسبب محاصرة سفن الرومان لجميع سواحل إيطاليا ومنع أي اتصال بينه وبين بلاده. فكان من المحتم عليه إدخال بعض القبائل الجنوبية تحت طاعته طوّعاً أو كرهاً وتجنيد الأشداء من رجالها ضمن جنوده وعدم التعويل على وصول المدد إليه لسد النقص الذي حصل في جيشه بسبب الأمراض والحروب.

ويظهر للمطالع من هذه التفصيات أن مركزه كان من أخرج المراكيز و موقفه من أصعب المواقف بتوغله في إيطاليا بدون أن يحفظ لنفسه خط اتصال بينه وبين قرطاجة بريًّا أو بحراً، ولذلك كان الرومانيون معتقدين بقرب الانتصار عليه وإهلاكه مع من بقي معه من الجنود لو اتبعوا الصبر والحكمة ولم يلقوا بأيديهم إلى التهلكة كما فعل القواد السابقون في الواقع السالفة.

فانتخبوا فابيوس القائد الذي اشتهر في أول هذه الحرب بالتوردة وعدم التهور فنصلأً لسنة 217 قبل المسيح وأعادوا انتخابه في السنة التالية، وفي خلال هاتين السنين أتى من ضروب الحكمة وفنون القتال ما جعل انبيال في خطر عظيم وأوقعه في حيص بيص؛ إذ أحاطت به الفيالق الرومانية من جميع الجهات إحاطة السوار بالمعصم واحتلت أغلب البلاد التي فتحها وضاقت عليه الحصار في مدينة (كاپوا) وقطعت مواصلاته مع الخارج كلية، وكانت تجهز عليه قطعياً لولا ما استعمله من السياسة في إهلاجة مدينة (سيرا كوزه) على الرومانيين بدسائسه واستعانته بفيليب ملك مقدونية ووالد إسكندر الأكبر مما سندكره بعد قليل.

ولقد أتى الرومانيون في هذه الظروف الحرجية ما يجب على كل أمة اتخاذه نموذجاً تنبع على منواله وقدوة حسنة تقتدى بها في محبة الوطن العزيز وبذل الروح لا المال لإنقاذه من الخطر أو استخلاصه من مخالب الأجانب، فكل أمة سهل عليها إفاء وطنها بأرواحها حفظت استقلالها وعاشت سعيدة سعادة حقيقة، وكل أمة استسهلت تحمل سيطرة الأجنبي على إدارتها واستخففت ثقيل وطأته على هامتها فقدت استقلالها لا محالة سارت إلى طريق الموت الأدبي والمادي حيث لا ينفعها ما ضَنَّتْ به من المال ولا ما احتفظت عليه من الأرواح.

ولما كانت الأمة الرومانية قد أشربت هذه الإحساسات الوطنية والعواطف الملية سهل عليها صرف الأموال وبذل المهج والأرواح في سبيل حماية بلادها وطرد الأجنبي من الواقع التي احتلها، فقبلت مضاعفة الخرائب بأنواعها وقدمت كل ما لدى نسائها من الحلي

والمصاغ تبرعاً لينفق في تعبئة الجيوش وتسليحها، وأصدر السناتو قراراً بأنه لا يجوز لأي سيدة من السيدات إحراز مصاغ من الذهب يزيد وزنه على نصف أوقية، وقدم الأغنياء كل ما عندهم من الأرقاء ليدمجوها ضمن الجندي وتبرعوا بثمنهم ومنحوا الحرية لمن يعود من الحرب منهم سالماً ومنهم من تبرع بمئونة عدد معين من الجندي مدة سنة إلى غير ذلك من أنواع المساعدات والتبرعات التي أملتها وطنيتهم على قلوبهم حتى أمكن الحكومة جمع نحو مائتين وخمسين ألف جندي وتشييد ما يلزم من السفن لمنع أي اتصال بين أنبيال وقرطاجة ونقل الجيوش الرومانية إلى إسبانيا لمساعدة القائد (سيبيون) على محاربة القرطاجيين هناك، ولولا وطنية الأهالي وفضيلتهم الموت على مذلة تسلط الأجنبي لما أمكن الحكومة إتيان أي عمل من ذلك.

هذا؛ ولم تقدر أنبيال مساعيه في إثارة حاكم سيرا كوزه بجزيرة صقلية المدعو هيبرون فإنه لم يلبِ دعوته إلى محاربة الرومانيين، بل حافظ على ولائهم في أيام شدتهم محافظته عليه في أيام سعادتهم، وكذلك لم ينجح القرطاجيون في مهاجمتهم جزيرة سردينيا ليحولوا أنظار الرومانيين عن أنبيال نوعاً ويضطرونهم لإرسال بعض جيوشهم للمحافظة عليها، وأخيراً لم تُفْدَه حيلته الثالثة وهي الاستنجاد بفيليب المقدوني فإن الرومانيين هاجموه حين استعداده لهاجمتهم ببلاد اليونان فهزموه واضطروه إلى العودة لبلاده مخذولاً، وبذلك لم يبق لأنبيال خلاص من الموقف الحرج الذي وجد فيه بسبب طيشه وثقة الزائدة في قوة جيشه وتفنته في ضروب الحرب إلا الاتكال على من يقي معه من الجيوش بدون انتظار وصول مدد إليه من قرطاجة بسبب محاصرة الرومانيين لجميع التغور كما قدمنا.

ولقد تمكّن أنبيال من الخروج من مدينة (كاپوا) قبل إتمام الحصار عليها وأخذ يناوش الرومانيين كي يتبعوه في الأماكن السهلة فينقض عليهم بفرسانه المشهورة، لكن أعياد صبر الرومانيين الذين التزموا خطة التسويف في الحرب على مذهب رئيسهم فابيوس.

هذا؛ ولما مات هيبرون حاكم سيرا كوزه وقتل ولده بعده أمكن أنبيال أن يهيج الأهالي ويبث فيهم روح الثورة والعصيان، فثاروا على حكامهم المسلمين لرومأة وأعلنوا الحكومة الجمهورية واتحدوا مع قرطاجة ضد الرومانيين، فحاربهم القائد الروماني (مارسللوس) وانتصر عليهم بعد العناء والتعب، وافتتح مدينة سيرا كوزة سنة ٢١٢ وقتل أثناء الهجوم إليها الرياضي الشهير أرخيميدس (Archimède) وطرد القرطاجيين الذين أتوا لمساعدتهم على الرومانيين، ولم تعد هذه الفتنة بأقل فائدة على أنبيال.

وفي سنة ٢٠٩ أعيد انتخاب فابيوس لقيادة الجيش فاستخلص مدينة ترنته من القرطاجين، وكانت هذه الحادثة خاتمة أعماله الحربية إذ لم ينتخب بعد ذلك إلى أن توفي سنة ٢٠٥ قبل المسيح.

ولقد امتاز (كرنوليوس سيبيون) وأخوه في محاربة القرطاجيين في إسبانيا والانتصار على ازدروبال أخيه أنبيال في عدة وقائع شهيرة، وكان النصر حليفهم دائمًا إلى سنة ٢١٢ حيث قتلا في إحدى هذه الحروب العديدة، وكان لأحدهما كورنيليوس ولد يدعى (بوليروس) اشتهر فيما بعد باسم سيبيون الإفريقي كان خير ولد لخير والد فإنه حفظ اسم أبيه وعمه، بل فاق عليهم في الشهرة وبعد الصيت إذ كان انتهاء هذه الحرب بحسن تدبیره وبعد نظره كما سترى.

وفي سنة ٢٠٨ انتخب كل من القائد مرسللوس وكرسيبيوس قنصلين لهذه السنة فارتئياً مهاجمة أخيه أنبيال لوضع حد لهذه الحرب التي طالت مدتها وزادت مضراتها ولم يتبعوا خطة سلفهم فابيوس، فعادوا بالخيبة والفشل وقتل مرسللوس مع كثير من ضباط الجيش وجنوده، فلم يعد انتخاب زميله لسنة ٢٠٧، بل وقع الانتخاب على القائدين نيون وليقيوس.

وفي تلك السنة انتصر (ازدروبال) على سيبيون الإفريقي في بلاد إسبانيا واحتاز جبال البريني وبلاد غاليا الجنوبية إلى أن وصل شمال إيطاليا لم يد المساعدة والمعاونة لأخيه أنبيال ويحاصرها مدينة رومة بين جيشهما، لكن أتاح الله لهذه الأمة الرومانية التي استمرت تحارب عن استقلالها وتناضل عن حياتها عشرات من السنين القائد نيون الذي كان يحارب أخيه أنبيال في الجنوب بينما كان زميله واقفاً في وجه ازدروبال يمنعه عن اللحاق بأخيه، فقد دبر هذا القائد حيلة أجهز بها على ازدروبال وذلك أنه سار بكل سرعة مع سبعة آلاف من نخبة رجاله بعد أن اتخذ ما يلزم من الاحتياطات لعدم استشعار أخيه بغيابه وجذّ في السير ستة أيام حتى لحق بزميله ليقيوس وأعلن العدو باجتماع الرئيسين فقط ازدروبال أن أخيه قد خذل ومات؛ إذ كان يصعب عليه أن يعتقد بمعادرة نيون لجنوب إيطاليا مع وجود أخيه بها ففر ازدروبال بجيشه إلى الشمال؛ لتوجهه أن جميع جيوش الرومانيين اتحدت لمحاربته وتحققه من عدم إمكانه مقاومتها، فتبعته القنصلان بما معهما من الجيوش وهزماه شر هزيمة بالقرب من نهر ميتوروس وفرقاً جنوده أيدي سبا وو جداً جثته ضمن القتلى وأرسل رأسه لأنبيال ليعلمهونه مما حل بأخيه، ولقد محا الرومانيون في هذه الموقعة ما لحق بهم من الفشل والتقصّ بهم من العار في واقعة تراسيمين، وكان.

وبعد ذلك لم يبق لانيايال أقل أمل في وصول أدنى مساعدة إليه من جهة قرطاجة ويئس من النجاح في مشروعه؛ إذ تضعضع حاله وهلكت جيوشه وتفرق من حوله محالفوه ومحازبوه من أهالي البلاد لما رأوا ما حل به من الانكسار وأيقنوا أن الفوز سيكون للرومانيين لا محالة لكنه لم يظهر يأسه، بل تظاهر بالثبات والصبر شأن كل عاقل حكيم.

ولنأتي هنا باختصار على ذكر ما حصل بإسبانيا من الواقع بين الرومانيين والقرطاجيين بعد موت كورنوليوس سيببيون وأخيه وظهور ولده پوبليوس الذي تقلب بالإفريقي فنقول:

إن پوبليوس انتصر مرتين على ازدروبال أخ أنييال ثم غافله ازدروبال المذكور واحتاز جبال الپيرينيه وببلاد غاليا (فرنسا) ووصل إلى شمال إيطاليا لمساعدة أخيه فهزمه وقتل وأرسلت رأسه إلى أخيه كما مر، وفي أثناء ذلك فتح پوبليوس سيببيون مدينة قرطاجة الجديدة المعروفة الآن باسم قرطاجنة التي كان أسسها أنييال بساحل إسبانيا، ووجد سيببيون ما كان لدى القرطاجيين من الرهائن التي أخذوها من أهالي إسبانيا ليأمنوا غدرهم وانضمماهم للرومانيين، فأحسن سيببيون معاملتهم وردهم إلى أهلهم مزودين بالهدايا الثمينة والتحف النفيسة، وعامل الأهالي بالرفق واللين فمالوا إليه بقلوبهم وساعدوه بأموالهم ورجالهم حتى افتتح جميع ما كان لقرطاجة من بلاد إسبانيا ولم يبق لهم إلا مدينة قادس.

ثم حول أنظاره إلى إفريقيه الشمالية وبالخصوص إلى بلاد نوميديا (هي بلاد الجزائر ومراكش الآن) التي كانت مجزأة بين دولتين متحدتين مع قرطاجة.

وكان ملك أحدهما يسمى مسينيسا والآخر سيفاكس وسعى في سلخهم عن قرطاجة وضمهم إليه ليكونا له عوناً على القرطاجيين، وسافر فعلًا إلى (سرتا) عاصمة مسينيسا المسماة الآن مدينة قسنطينة بجزائر الغرب وأبرم تحالفاً مع هذا الملك وتحالف كذلك مع سيفاكس، لكن لم يلبث سيفاكس أن انفصل بمساعي القائد القرطاجي ازدروبال بن جسكون الذي زوجه ابنته على محاربة مسينيسا وطرده من مملكة آبائه وأجداده. لكن لم تُقعد سيببيون كل هذه العوائق عن تنفيذ ما صمم عليه وعرضه على أمته وهو أن يقصد نفس بلاد قرطاجة بجيش عظيم فيضطر أنييال لمبارحة بلاد إيطاليا للدفاع عن وطنه الأصلي، وهو مشروع غاية في الأهمية والإصابة إلا أنه صادف معارضات شديدة في روما وبالأخص من القائد الكبير فاپيروس الذي كان يميل دائمًا إلى التسويف

وعدم الإسراع، وكان رأيه تضييق المذاهب والمسالك على أنبيال ومحاصرته في الجهة النازل بها حتى يضطر للتسليم.

وقد انصاع سناقو رومة لهذا الرأي ولم يوفق سيبيون الإفريقي على رأيه، فسافر سيبيون إلى سيرا كوزه بجزيرة صقلية وأرسل عدة خطابات إلى الولايات الرومانية والشعوب التابعة لرومة يفصل لهم مشروعه ويوضح أفضليته على رأي فاپیوس الذي لا يكون من ورائه إلا إطالة مدة الحرب وأضمحلال الأمة وفقرها باشتغالها عن الزراعة والتجارة وصرفها كل قواها في تعبئة الجيوش وتجهيزها وتعطيل ما دونها من الأشغال، فصادف نداوهه أذاناً واعية وقلوبًا متقدة وطنية وغيره على استخلاص الوطن من الاحتلال الأجنبي فأمدته الأمم التابعة لرومة بالمال والرجال والسفن وتطوع كثير من شبان الرومانيين من جميع الطبقات لا فرق بين فقير وحقر في خدمة الوطن والدفاع عن حرمه حتى جمع سيبيون في مدة وجيبة ثلاثة ألف جندي وسافر بهم قاصدًا إفريقيا تحملهم أربعين سفينة تجارية تخرفهم خمسون سفينة حربية، وأخذ من المؤونة ما يكفي جميع جيشه مدة خمسة وأربعين يومًا وأقلع في غضون سنة ٢٠٤ ق.م. قاصدًا قرطاجة، وكان يوم سفره من ثغر ليليبيا^٤ يومًا مشهودًا حضره إليه الأهالي من أقصى الجزيرة، ومما جعل لهذه الإرسالية أهمية عظمى أن الحكومة لم تشتراك فيها مطلقاً، بل كانت مضادة لها اتباعًا لرأي القائد المسووف فاپیوس.

ولم ت تعرض سفن قرطاجة سيبيون وسفنه أثناء اجتيازهم البحر بين صقلية وتونس، بل سار بأمان إلى أن ألت السفن مراسيها بمحل يعرف الآن باسم Beau (Promontoir) وأنزل عساكره إلى البر فانضم إليه في الحال مسييسا ملك نوميديه السابق ذكر تعدي سيفاكس عليه واغتصابه الملك منه بمساعدة ازدروبال القرطاجي، وقضى سيبيون ما بقي من سنة ٢٠٤ بدون أن يأتي عملاً يذكر سوى تحصين معسكره واتخاذه الاحتياط اللازم لصد كل عدو مفاجئ.

وفي السنة التالية جمع له القرطاجيون جيشاً يزيد عن خمسين ألف مقاتل تحت قيادة ازدروبال وبمساعدة سيفاكس، فتظاهر سيبيون بالليل إلى الصلح حقنًا للدماء

^٤ فرضة قديمة في جنوب جزيرة صقلية والمسافة بينها وبين ساحل إفريقيا أقل من جميع الشعور الأخرى، وكان أيام القرطاجيين والرومانيين ذات أهمية عظمى ولما دخلها العرب أيام الإسلام سميت (مرسى الله) ثم حرف اسمها فصار الآن (مرسالا) وهي مشهورة بجودة نبيذها وبلغ عدد سكانها أربعين ألف نسمة.

البريئة وأرسل بعض ضباطه إلى معسكر الأعداء بحجة المخابرة في الصلح وشروطه، وكانت مأموريتهم الحقيقة زيارة معسكر الأعداء واستكشاف أحوالهم.

ولما علم سيبتون بهذه الطريقة أن المعسكر مركب من أكواخ صغيرة من القش والبوص عمد إلى حرقه بالنار ليلاً فحرق ودمرت ميرة الأعداء وما معهم من المؤن، وهلك كثير من جنودهم وتفرق الباقون إلى جميع الجهات، وبذلك انتصر عليهم نصراً مبيناً بدون أن يعرض حياة نفر من رجاله إلى الموت وانتصر عليهم مرة ثانية في موقعة منتظمة.

ثم أرسل مسنيسا مع أحد القواد الرومانيين لاقتفاء أثر سيفاكس والقبض عليه حياً أو ميتاً، فطاردوه في الجبال والسهول وانضم إليهم كثير من أهالي نوميديه الذين أصلهم رعايا مسنيسا وتفرقت الجنود عن سيفاكس لما علموا بمحىء ملتهم الأصلي وسيدهم الشرعي، وأخيراً قبض عليه وعلى زوجته ابنة ازدروبال ودخل مسنيسا مدينة سرتا (الآن قسنطينة) وجيء بسيفاكس على سيبتون فسجنه إلى انتهاء الحرب وتزوج مسنيسا زوجته التي كان يهواها من قبل، لكن لم يقبل سيبتون زواجه بها وطلب منه أن يتركها أو يأخذ منه ملكه، فأثار الملك على حب هذه الفتاة ودس لها السُّم فماتت شهيدة الجشع والطمع.

وفي هذه الأثناء استقدمت حكومة قرطاجة انبیال وجيوشه من إيطاليا كما استقدمت ماجون الذي كان أرسل بجيش قرطاجي إلى جبال (ليجوريا) بشمال إيطاليا ليحول قوى الرومانيين إليه ويخلص بذلك انبیال من الضيق المدق به، فعادا طائعين وطهرت الأرضي الرومانية من دنس الاحتلال الأجنبي بحسن تدبیر سيبتون ونقله ميدان الحرب بإفريقية. وقد آتى انبیال من الفظائع عند مبارحته إيطاليا ما تقشرع منه الأبدان وترتعد له الفرائص، وقتل كل من لم يقبل مرافقته إلى إفريقية من الأهالي الذين كانوا انخرطوا في سلك جيوشه طلباً للغنية، فخرج من إيطاليا آسفًا على عدم نجاح مشروعه وخيبة مسعاه أمام وطنية الرومانيين وتهاكلهم في الدفاع عن بلادهم عشرات من السنين.

ولما عاد انبیال إلى إفريقيا أراد أن يصالح سيبتون على مال معين فلم يقبل لتصميمه على الحرب والانتصار حتى يمحو عن رومة وجيوشها ما لحقها من العار في بعض الواقع السابقة وينتقم لها من قرطاجة وجيوشها التي طمحت بأنظارها لامتلاك البحر الأبيض المتوسط.

وفي شهر أكتوبر سنة ٢٠٢ ق.م. جمع القرطاجيون ما أمكنهم جمعه من بقايا جيوشهم وأستعد سيبتون للقتال مستعيناً بفرسان نوميديا الآتين مع مسنيسا لنجدته،

والذين كانوا في أوائل هذه الحرب عوناً لأنبيال ضد الرومانيين في وقائع تريبيبا وكانه . وغيرهما.

وفي ١٩ من ذلك الشهر التهم الجيشان بمحل يقال له (زاما) (Zama) وانتصر الرومانيون على القرطاجيين نصراً لم تقم لهم بعده قائمة، وفر انبيال إلى مدينة (هدروميتس) ومنها إلى قرطاجة فدخلها مهزوماً بعد أن أقام خارجها خمسة وثلاثين سنة قضتها في الحرب والقتال.

وبعد الانتصار عاد سيبتون إلى تونس طارداً من طريقه كل من قابله من بقايا الجيوش، ومن تونس أرسل إلى قرطاجة رسولًا بالشروط التي اقترحها للصلح وإخلاء أرض قرطاجة، وهذه الشروط هي: أن تتخلى قرطاجة عن جميع أملاكها بإسبانيا وجزائر البحر المتوسط ولا تحفظ إلا بلاد قرطاجة الأصلية (إقليم تونس) — وأن تسلم جميع ما لديها من أسرى الرومانيين والفارين إليها من الجيوش الرومانية، وجميع ما عندها من السفن بحيث لا يكون لها الحق إلا في عشر سفن لا غير — وأن تسلم ما لديها من أفيال القتال — وأن لا يجوز لها أن تقتني غيرها فيما بعد — وأن لا تحارب أحد مجاوريها إلا بإذن روما — وأن لا تؤجر الأغраб في جيوشها — وأن تدفع غرامات حربية قدرها عشرة آلاف تالنت (Talents) في مدة خمسين سنة — وأن تعتبر مسنيسا حليفاً لها وتعطيه غرامات حربية تقدر فيما بعد.

فقبل سناتو قرطاجة هذه الشروط جميعها وسلمه خمسمائة سفينة حربية أمر سيبتون بحرقها أمام قرطاجة حتى يثبت لهم أن روما غير محتاجة لسفنه وأنها غنية بنفسها.

وكانرأي بعض قواد الرومان إلغاء حكومة قرطاجة بالمرة ومحوها من عالم الوجود حتى تكون روما المالكة الوحيدة لخوض البحر المتوسط الغربي، لكن لم يوافق سيبتون على هذا الرأي، بل فضلبقاء قرطاجة ضعيفة وبجانبها حكومة قوية محالفه لها وتحت سيطرة الحكومة الرومانية وهي حكومة (نوميديا) وعزز هذا الرأي بأن الرومانيين لو أمنوا كل مزاحمة من جهة قرطاجة لرکعوا إلى الخمول؛ إذ لا يكون لديهم باعث يحثهم على مداومة الحذر والاستعداد لصد كل طارئ وتكون النتيجة إماتة الإحساسات الحربية والعواطف الوطنية في الأمة الرومانية ونعم الرأي رأيه فإن اهتمام الأمة بأمر حياتها وحمايتها من الطوارئ الخارجية يجدد فيها دائمًا روح الوطنية ويشدد ربط الاتحاد بين أفرادها بخلاف ما لو كانت آمنة من الأعداء داخلاً وخارجًا فإنها تميل إلى الترف وحب

الزخرف، وتشغلها الملاذ الدنبوية عن الاهتمام بالأمور العمومية النافعة للبلاد، وتضعف فيها العواطف الشريفة شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى بالمرة وتكون فريسة سهلة لكل طامع في امتلاكها ساعٍ وراء إبادتها.

ولهذه الملاحظات صدق مجلس سناتو روما على هذه الشروط واحتفل بسيپيون عند عودته احتفالاً لم يسبق لغيره من القواد العظام، فدخل روما في موكب حافل سار فيه وراء عربته الملك سيفاكس السابق الذكر وهو أول ملك سار بصفة أسيير في موكب انتصاري برومما (وقال بعض المؤرخين: إنه مات في السجن قبل هذا الاحتفال) وقامت له الأهالى من جميع الطبقات بمظاهرات الولاء والإخلاص، وتغالت الأمة في إظهار شكرها له على تخلصها من الاحتلال الأجنبي وضعضة أركان قرطاجة حتى عينته حاكماً مطلقاً (دكتاتور) طول حياته خلافاً لما تقضي به النظمات والقوانين.

هذا؛ ويظهر للمطلع على التاريخ القديم والحديث أن بين حروب روما لقرطاجة وحروب فرنسا وإنكلترا في أوائل القرن التاسع عشر تشابه عظيم؛ وهو أن كلاً منها كانت تسعى للاختصاص بقيادة البحار دون الأخرى ففازت روما على منافستها، ولم تفز فرنسا على إنكلترا لداعٍ يطول شرحها.

وكذلك توجد مشابهة بين اجتياز انبیال لجبال الألب في أوائل الحرب البونيقية الثانية وبين عبور نابوليون بونابرت لها عند محاربته النمسا في آخر القرن الثامن عشر، فإنه اتبع طريق سان برنارد الذي اتبعه انبیال فكان له منه قدوة حسنة سار عليها ونسج على منوالها، وكذلك فقد أراد نابوليون مجازة سيپيون الإفريري في طريقة محاربته لقرطاجة ونقله الحرب إلى بلادها بدل أن تكون بلاد إيطاليا مرسحاً للقتال فأنشأ معسكراً عظيماً في ثغر (بولونيا) على بحر المانش الفاصل بين فرنسا وإنكلترا وجمع فيه جيشاً جراراً وعدة مئات من السفن الحربية وسفن النقل لنقل الجنود إلى بلاد الإنكلز ومحاربتها في نفس بلادها، فيضطرها لسحب عساكرها من البرتقال وإسبانيا وباقى جهات قارة أوروبا والاشتغال بالدفاع عن بلادها وعدم مساعدة باقى دول أوروبا ضده، لكن لم تساعد هذه الظروف على تتميم هذا المشروع وحافظت إنكلترا من إغارتة التي لو تمت حسب تدبیره لأجهزت عليها ولم تقم لها بعد ذلك قائمة كما حصل لقرطاجة بعد الحرب البونيقية الثانية.

وقد كانت نتائج هذه الحرب عظيمة جداً فإن روما سادت على أوروبا الغربية بأسرها، وعلى جميع شواطئ البحر المتوسط الغربي، ولم يبق لها به مزاحم، فطمحت

إلى التوسع في امتلاك البلاد الشرقية حتى يكون لها ملك البحر الأبيض المتوسط من أوله لآخره، وساعدها على مقصدها ما صارت إليه حالة العالم الشرقي من الانحلال عقب سقوط المملكة الواسعة الأطراف التي أسسها إسكندر الأكبر باني إسكندرية الم توفى سنة ٣٢٣ ق.م. وتقسيم قواده مملكته إلى عدة ممالك صغيرة واستمرار الحروب بين هذه الإمارات كما حصل في أواخر خلافة العباسيين في نفس هذا العالم الشرقي مما كان سبباً لتلاشيه كما كان السبب بعينه سبباً لتلاشيه ملك الإسكندر وامتلاك الرومانيين لهذه الإمارات جميعها الواحدة بعد الأخرى كما سيأتي في الجزء التالي.

وكذلك كانت بلاد اليونان الأصلية منفصمة العرى لا تضaffer ولا ارتباط بين مدنها؛ إذ كانت كل مدينة تصبو إلى التسلط على جارتها والتهام ما تصل إليه يدها من أراضيها، وبالاختصار فلم يكن في الشرق دولة يمكنها مقاومة أطماع الدولة الرومانية وصد غاراتها عن الشرق، نعم لو اتحدوا معًا ونبذوا الانقسام ظهرياً لأمكنهم حفظ استقلالهم أمام أي دولة مهما كانت قوتها فالعروة الوثقى لا انفصام لها، لكنهم لم يلتقو إلى هذه الحقيقة الباهرة، بل استمروا على تفرقهم، فسقطت الدولة الرومانية عليهم وحرمتهم استقلالهم وسلبتهم حريةهم وضربت عليهم الذلة والمسكنة جزاء ما كانوا يفعلون.

ولم تكتف هذه الدول الشرقية بالتفرق والانقسام، بل تهافتت على التملق لرومة والتودد إليها والاستنجاد بها على بعضها البعض مما كان سبباً لتدخلها في شؤون بلادهم الداخلية، فقد أبرمت حكومة البطالسة بمصر مع روما معاهدة محبة وولاء منذ سنة ٢٧٩ ق.م.

ولما كان من القوانين الطبيعية المقررة بالشواهد العديدة أن كل اتحاد بين أمتين إحداهما أضعف من الأخرى تكون نتيجته حتماً تداخل القوية منهما في شئون حليفتها مع الزمن بدعوى النصيحة والإرشاد والسلط عليها في آخر الأمر تسلطاً أديبياً ثم يستحيل هذا التسلط الأدبي إلى تسلط فعلي وامتلاك حقيقي.

ولم تنج مصر في عهد البطالسة من نتائج هذا الناموس الطبيعي، بل تدخلت الحكومة الرومانية في شئونها شيئاً فشيئاً حتى تحصلت بمساعيها لدى وزراء مصر عند تولية بطليموس الخامس الذي كان سنه لا يتجاوز الخمس سنوات على أن تكون الوصاية عليه مدة طفوليته إلى أن يبلغ رشهه لسناتو روما، فكانت شئون مصر في عهده في يد الحكومة الرومانية بصفة وصية، ونحن نعلم كيف تكون معاملة الوصي للموصى عليه في مثل هذه الظروف، وأمام أعيننا الشواهد العديدة على ذلك في عهد احتلال إنكلترا لمصر

وإدارتها شئونها بصفة وصية إلا أن الفرق بين هاتين الحالتين أن روما عينت وصية على ملك قاصر وبطلب وزرائه، وإنكلترا عينت نفسها وصية على مصر التعيسة وخديوتها توفيق باشا بالغ رشيد، واستمرت وصايتها بعد موته وشهاده العموم بأن خليفة عباس باشا الثاني لا يقل ذكاء وحباً لخير بلاده عن أحسن ملوك أوروبا وإمبراطرها.

حرب مقدونية

وبعد أن انتهت الحروب مع قرطاجة بالكيفية السابقة شرحها وفازت روما بالظفر وقيدت عدوتها بمعاهدات تجعلها تحت حمايتها الفعلية، وألزمتها بمحالفة مسنيسا ملك نوميديه وقوته بجوارها ليكون مراقباً عليها وعنواناً لروما عند الحاجة وجهت روما التفاتها للانتقام من فيليب ملك مقدونية الذي اتحد مع أثينيالا عليه، فقرر السناتو محاربته لإذلاله وإضعافه فيؤمن شره في المستقبل خصوصاً وأنه كان باذلاً جهده في الالحاد مع انتيوكوس^١ ملك الشام وپروسپاس ملك بثينيا^٢ على محاربة بطليموس مصر الذي كان تحت حماية روما وسلبه أملاكه في بلاد سوريا وغيرها وحصره في حدود مصر الطبيعية.

ولقد كان الشعب الروماني غير موافق على الحرب في أول الأمر لما قاساه من المشاق في محاربة أثينيالا، ثم اقتنع بضرورة إشهار الحرب على فيليب حتى لا يكون بجوار إيطاليا ملك قوي يخشى من تعديه يوماً ما على حدودهم كما فعل معاونة للقرطاجيين. وعين القنصل سولپسيوس لحاربته، فسار إلى بلاد مقدونية سنة ٢٠١ ودخلها من جهة الغرب وفتح منها عدة مدن، ولما جاء الشتاء عاد على مدينة أبولونيا على بحر الأدریاتیک لقضاء فصل الشتاء.

^١ هو انتيوكوس الثالث حفيد انتيوكوس الأول ابن سيليسوس الأول أحد قواد إسكندر الأكبر الذي أختص بالشام وما جاورها عند تقسيم أملاك الإسكندر بعد موته وإليهم تنسب مدينة أنطاكية الموجودة للآن.

^٢ بثينيا إقليم في الشمال الغربي لآسيا الصغرى وأسس ملكاها الأول والثاني مدينة بروزه التي تحرف اسمها فيما بعد فصار بروسة أو بروسه المشهورة بقبور آل عثمان الستة الأولى.

وفي ربيع سنة ٢٠٠ قبل المسيح أتى إلى المعسكر القنصل ويلنيس الذي انتخب لهذه السنة فرأى الجندي في حالة عصيان وهيجان لا يجسر معها على مهاجمة العدو، فقضى مده في تنظيم الجندي وإعادة السكينة إليه، وظن فيليب أن الرومانيين لم يهاجموه لضعف في قواهم فأتى بجيشه وعسكر على ضفتي نهر أوس^٣ الذي يمر بالقرب من أبولونيا ويصب في البحر الأدربياتيكي، وامتنع في محل بالغ في تحصينه حتى خشيت رومية عاقبة وجوده في هذه النقطة وأرسلت فلامينوس الذي برهن على كفاءته في الحروب السابقة لقيادة الجيش المحارب في مقدونيا.

ولقد حقق هذا القائد اعتقاد أهل بلاده فيه وانتصر على فيليب في سنة ١٩٨ ق.م. انتصاراً عظيماً وتبعد في تقهقره على إقليم (تساليا) وقضى شتاء هذه السنة في قلب بلاد اليونان ليستميل إليه القبائل المعادية لفيليب، فانضم إليه كثير منهم حتى إذا أتى ربيع سنة ١٩٧ كان قد أدخل في عداد جيشه كثيراً من اليونان أنفسهم.

وحارب فيليب في شهر يونيو بجيشه تعداده ستة وعشرين ألف مقاتل بينهم ثمانية آلاف من اليونان المنضمين إليه وانتصر عليه نصرة عظيمة لم يقم له بعدها قائمة، بل اضطر لطلب الصلح وقبول شروط فلامينوس بدون تغيير أو تحويل.

وأهم هذه الشروط أن يكتفي بملك مقدونيا ويسحب عساكره من باقي بلاد اليونان بأوروبا وأسيا، ويعيد إلى تساليا استقلالها ويسلم جميع السفن الحربية وغيرها إلى الحكومة الرومانية، ولا يبقى بطرفه غير خمس مراكب نقل لا غير، ويحل جميع جيشه إلا خمسمائة جندي لحفظ الأمن داخل بلاده، وأن لا يحارب أحد مجاوريه بدون إذن وتصريح الحكومة الرومانية وتعهد بأن يدفع خمسمائة غرامات حربية وخمسين ألف دينار جزية سنوية لمدة عشر سنين، وقدم على تنفيذ هذه الشروط عدة رهائن منها ولده ديمتريوس.

وبذلك أضفت رومية ملك مقدونيا كما فعلت مع قرطاجة فأمنت مجاوريها شرعاً كما أمنت شرور قرطاجة جنوباً وغرباً، ولم تجهز على مقدونيا وتجعلها ولاية رومانية للأسباب التي ذكرناها في آخر الحرب البوئيقية الثانية، بل اتبعت سياسة الحكم والسداد والإصابة والرشاد.

^٣ نهر صغير اسمه (Voïoussa) ويمر بإقليم (اپيروس) التابع لولاية يانيه العثمانية.

وبعد أن تم خضوع فيليب وأمنت روما جانبه استمالت جميع اليونانيين إليها حتى لا ينضموا فيما بعد إلىه أو إلى غيره من يدعونهم لمحاربة روما، فمتحتم جميعاً الحرية في داخلية بلادهم وجعلت كل بلد مستقلة عن الأخرى تمام الاستقلال أو متحدة مع بعض مجاوريها اتحاداً بسيطاً، فشكرها اليونانيون شكرًا جزيلاً على هذه المنة لاعتقادهم أنها ترور لهم كل خير وأقاموا الولائم والاحتفالات شكرًا لصنيعها وأعتقدوا من كان لديهم في حالة الرق من أسرى الرومانيين الذين باعهم القرطاجيون بيع الأئم ولم يفطنوا إلى ما كانت تبنته لهم الحكومة الرومانية من التشر والتخيّلة السياسية، فإنها كانت تقصد بعملها المذكور التفريق بينهم وفصل عرى اتحادهم فلا تخشى بأنهم حالاً واستقبلاً وتترکهم في حالة الاستقلال الظاهر أشتاتاً لا رابط يجمعهم ولا وحدة بينهم يفتقر كل منهم لحمايتها ضد جيرانه من أبناء جنسه، فيكون الجميع تحت حمايتها الفعلية لا غنى لهم عنها مطلقاً حتى إذا آنست منهم ضعف العواطف الوطنية والحمية المثلية سلبتهم استقلالهم وجعلتهم ولايات رومانية تابعة إليها رأساً فلا يقووا إذ ذاك على مقاومتها بالقول أو بالفعل لما يكون خر عظامهم من سوس التفريق والانحلال.

ولقد أصابت روما في هذا العمل من وجهتها الأنانية، ولو أنها ألحقت باليونانيين أضراراً بلغة مادية وأدبية فمنافع قوم مصيبة آخرين، وقانون التزاحم في الحياة النباتية والحيوانية يقضي بافتراس القوي الضعيف بالقوة والسيف أو السياسة والدهاء تبعاً لدرجة المفترس الهمجية أو المدنية.

ولما انتهت الحرب مع فيليب بالكيفية السابقة رجع أغلب الجنود الرومانية وعاد القائد فلامينوس إلى روما فدخلها في موكب النصر حسب العتاد لدى القوم، لكن أبقى في بلاد اليونان فرقة رومانية لمراقبة حركات فيليب المقدوني من جهة وخوفاً من تعدي انتيوكوس ملك سوريا حدوده واختياره البحر لمحاربة الرومانيين اتباعاً لوسائله انبيل الذي ما انفك ساعياً في تأليف الحالفات ضد روما انتقاماً منها على انتصارها عليه فهو الذي كان سعى في تحريض فيليب المقدوني على محاربتها.

ولما لم يفلح وثبت للحكومة الرومانية تداخله وتحريضه طلبت من قرطاجة نفيه خارج البلاد خصوصاً وأنها رأت منه اهتماماً زائداً في إصلاح داخلية بلاده، وخشيت لو استمر على خطته الإصلاحية من أن تقوى قرطاجة يوماً ما من استرجاع ما فقدته من القوة والشرف في الحرب الأخيرة، فهرب انبيل خفية وأتى إلى إنطاكية يحرض ملكها على محاربة روما العدوة اللدودة لبلاده.

محاربة انتيوكوس ملك الشام

ولما كان انتيوكوس يطمح بنظره إلى امتلاك ما كان تحت سلطان إسكندر الأكبر من البلدان خصوصاً في آسيا الصغرى وإقليم (تراس) المسمى اليوم بالروملي والباقي للآن تحت حكم الدولة العلية مال إلى نصائح انبیال وقبلها بكل ارتياح، وجهز جيشاً عظيماً لمحاربة الرومانيين واجتاز البحر إلى بلاد اليونان وانضم إليه من اليونانيين إحدى القبائل التي كانت مصافية للرومانيين ومحالفتهم لهم ضد فيليب المقدوني، ثم انقلبوا عليهم لعدم حصولها على ما كانت تتبعيه من الضياع والبلاد فأرسلت رومة الجيوش من ثغر برنديس (الآن برندizi) إلى بلاد اليونان وساعدتها قرطاجة بإرسال جانب عظيم من الغلال، وكذلك انضم إليها فيليب المقدوني عدوها السابق وحكومة قبرص وباقى الحكومات اليونانية المستقلة التي كانت تخشى على استقلالها من مطامع انتيوكوس، فانتصر عليه الرومانيون ومحالفوهم تحت قيادة كانتون في عدة مواقع، وأخيراً تقابل الجيشان في مضيق (الترموبيل)^١ في يولية سنة ١٩١ ق.م. وفاز الرومانيون بالغلبة وفرَّ انتيوكوس إلى آسيا الصغرى بعد أن اجتاز (إقليم تراس) وعبر بوغاز الدردنيل^٢ فتبعه الرومانيون إلى

^١ اشتهر هذا المضيق بمناعتة، وهو يعتبر بمثابة مفتاح للجزء الجنوبي لبلاد اليونان المعروف الآن باسم موره وكان اسمه عند اليونان Péléponèse، وحصلت فيه عدة وقائع شهيرة أهمها سنة ٤٨٠ قبل المسيح حين ما قصد الفرس بلاد اليونان تحت قيادة ملكهم اكسرخس فوق لهم فيه ليونidas ملك اسپارتة ومعه ثلاثة من أهل بلاده وهزم بدسيسة خائن دل الأعاجم على طريقة أخرى لاجتياز هذا المضيق، فاستشهد ليونidas ومن معه بعد أن دافعوا عن أرواحهم وبلادهم دفاع الأبطال.

^٢ هو البوغاز المشهور كان اسمه عند اليونان (هلسپونت) يبلغ طوله ٧٠ كيلومتراً وعرضه في بعض النقط ١٨٠٠ متراً فقط، وهو منيع جداً وعلى ضفتيه قلاع حصينة تجعل المرور منه في غاية الصعوبة،

بر الأنطاطول وهي أول مرة وطأ فيها الرومان أرض آسيا، وب مجرد دخولهم إلى هذا الإقليم انضم إليهم كثير من الإمارات الصغيرة التي قامت على أطلال مملكة الإسكندر لما سمعوه من معاملة الرومانيين لأهالي اليونان ومنحهم الحرية في نظاماتهم الداخلية ودخل كثير منهم في عداد جنود الرومانيين.

أما انتيوكوس فتقهقر إلى مدينة (افسوس)^٢ وصده عنها سكانها بعد أن حاول احتلال مدينة (برغامه)^٤ تحت قيادة ملکهم Eumène حليف الرومان.

وفي ٥ أكتوبر سنة ١٩٠ ق.م. دخل الرومان إلى معسكر انتيوكوس بالقرب من مدينة مغنيسيا^٥ وهزموا هزيمة لم تقم له بعدها قائمة واضطروه لقبول ما عرضوه عليه من شروط الصلح التي تشبه من جميع الوجوه ما أبرم مع قرطاجة وفيليب المقدوني، وهي أنه لا يجوز له محاربة أحد مجاوريه بدون إذن سناتو روما، وأن يسلم ما لديه من أفيال الحرب إلى ملك برغامه، ويدفع إليه غرامة حربية تساوي مائة ألف جنيه من عملة هذا الزمان، وأن يدفع لروما غرامة تعادل ثلاثة ملايين جنيه ويسلمها جميع مراكبه الحربية، وأن ينسحب إلى ما وراء جبال طوريس بحيث يكون هذا الجبل حدًا لأملاته من جهة الشمال، وأخيرًا اشترطت عليه تسليم أفيال أكبر محرض على هذه الحرب التي كانت القاضية على ملك انتيوكوس، فكان أفيال لم يكتف بما أصاب بلاده من الضرر بسبب مطامعه فأوقع محاذبيه في ما وقع هو فيه من المصائب، ولما علم أن انتيوكوس قبل تسليمه إلى الرومانيين فرارًا واحتى لدى پروزياتس ملك بشنينا.

وقد وزع الرومان ما أخذوه من بلاد انتيوكوس على محالفיהם من اليونان ولم يبقوا لأنفسهم شيئاً منها وأعطوا معظمها إلى أكبر حلفائهم وهو Eumène ملك برغامه فصار بالنسبة لانتيوكوس كحسينسا ملك نوميديا بالنسبة لقرطاجة.

وبعد أن أتموا إخضاع هذا الإقليم ورتبوا أموره ووطدوا ربط الاتحاد بين سكانه وبين الحكومة الرومانية عادوا إلى أوروبا ولم يتركوا نفراً من جنودهم في البلاد التي فتحوها، بل

وفي سنة ١٨٤١ أمضيت معاهدة تحجر على الدول الحربية المرور منه إلا بإذن الباب العالي، واسمها مشتق من اسم مدينة اسمها دردانيا كانت على ضفته الآسيوية.

^٣ كانت هذه المدينة ذات أهمية في صدر المسيحية وانعقد بها عدة مجتمعات دينية للمناقشة في أصول الدين المسيحي.

^٤ كانت من أشهر مدن اليونان بآسيا الصغرى وكان بها مكتبة عامرة تضارع مكتبة الإسكندرية.

^٥ اسمها الآن منيسيا بولية آيدين وهي واقعة على خط السكة الحديد الواصل بين أزمير والأشهر.

ردوها لأصحابها مكتفين بأن يكونوا لهم أصدقاء مخالصين لا أعداء معاندين كما فعلوا مع بلاد اليونان سابقاً، فوجدوا منهم أكبر عضد وأعظم مساعد عند مرورهم من بلادهم قاصدين آسيا الصغرى، نعم إن بعض القبائل انقلبت على الرومانيين في أوائل محاربة انتيوكوس لاعتقادها أنها لم تحظ بما تستحقه من المكافأة بعد مساعدتها الرومان في أول الأمر على محاربة فيليب المقدوني إلا أنها لم تر بدأً من الإذعان بعد أن لقيت من الرومان يدأ قوية في معاقبتهم على خيانتهم لها وعدم محافظتهم على ولائها.

وبذلك لم يبقَ لرومة المجاور تخشى تعديه على حدودها، بل لم يبقَ على ضفاف البحر المتوسط أمة غير متحالفة معها، وبعبارة أخرى غير خاضعة لها بالفعل، ولكن لاعتقادها عدم القدرة على جعل بلادهم ولايات رومانية بحثة تركت لها هذا الاستقلال الظاهري حتى تتمكن من إخضاعها تماماً تبعاً لمقتضيات الظروف ودعاعي الأحوال.

ولا يخفى ما بين هذه السياسة وسياسة الدول الأوروبية مع الأمم الشرقية في هذه القرنين الأخيرة من التشابه، فمن راجع تاريخ احتلال الإنكليز لبلاد الهند وامتداد نفوذهم تدريجاً تارة بالفتح غالباً بإبرام المعاهدات الودادية (كما يسمونها) مع الأمراء والحكام وإيقاد نيران البغضاء والشحنة بينهم ومساعدتهم على بعضهم البعض لإضعافهم وتفریقهم، وما تبذله إنكلترا الآن من هذه السياسة المبنية على الأنانية وحب النفس في بلاد إفريقيا بمساعدة رجالها مثل سسيل رود في الجنوب والكابتن لوجادر في الوسط واللورد كروم في الشمال يتحقق إن الإنكليز تشبيهوا في سياستهم الاستعمارية بالرومانيين الذين سبقوهم في هذا المضمار.

وقد كانت نتيجة إتعابهم أجيلاً متعاقبة الخراب والدمار لما تغلبت عليهم اللذات ومالوا مع الهوى بسبب كثرة أموالهم وشدة غناهم.

وحيث قد شوهد أن الحوادث التاريخية تتكرر فلا بد أن تكون عاقبة الإنكليز سيئة جداً لو داموا على هذه الخطة خطة الأثرة وامتهان حقوق الضعفاء والإكثار من امتلاك البلاد، فإن ذلك قد أثار طمع الأمم الأخرى فقادت لزاحتها، وسيكون لها من ألمانيا والروسيا في المستقبل أكبر منافس في المسائل الاستعمارية وأعظم محافظ على طريق الاستعمار وهو مصر، ونؤمل أن تكون نتيجة هذه المزاحمة والمنافسة خير لمصرنا التعيسة فتحصل على ما يضمن لها استقلالها بحماية جميع الدول ذات الصالح في حفظها من السقوط في أيدي دولة واحدة تقفل طريقها وتوصد أبوابها في وجه من خالفها أو عادها.

بعض حروب أخرى

موت أنبيال

هذا؛ وفي أثناء الحروب المتواترة في مقدونية وأسيا الصغرى هاجت القبائل الإيرانية النازلة بإسبانيا طلباً للاستقلال فأرسلت الجيوش الرومانية تباعاً لقمعهم وإلزامهم الرضوخ والسكينة فقاموا مدة، وكانت الحرب بينهم وبين الرومانيين سجالاً إلى أن تغلب عليهم في آخر الأمر القائد سمپرونیوس جراکوس Semprenius Grachus وألزمهم الطاعة.

وكذلك مالت قبائل الغال النازلة في شمال إيطاليا إلى الثورة والعصيان فقمعوا وبقي في إيطاليا من أراد البقاء وهاجرت عدة من القبائل التي لم ترض أن تكون تحت ذل واستعباد الرومانيين وأثرت هجرة الوطن إلى غيره من بلاد الله الواسعة طلباً للاستقلال والتمتع بالحرية بعيداً عن مرامي أنظار الرومانيين ونزلت على شواطئ نهر الدانوب. ولما استتب الأمن بإسبانيا وشمال إيطاليا واستراح بالحكومة الرومانية من جهتهم كما استراح من جهة بلاد اليونان وأسيا الصغرى لم تجد الوقت الكافي لتنظيم داخليتها والنظر فيما يعود عليها بالتقدم في ميادين التمدن والارتقاء في معارج الفلاح بسبب ما كان يدسه فيليب المقدوني من الدسائس في بلاد اليونان ويبذره من بذور الشقاوة بين مدانهما لتفصل عن الاتحاد مع روما وتحصل على تمام استقلالها ومن كان يرسلهم من الرسل إلى متربوري الجهات الشمالية ليشنوا الغارة على بلاد الرومان فيشتغلون برد غاراتهم عن بلادهم ويخلو له الجو في بلاد اليونان، فيفتح جميع مدنه ويصير هو ملكاً مطلقاً بها الأمر الذي كان يسعى جده لنواله من مدة واحدة مع سكان التراس (الروملي) واحتل جزءاً منها ليس بقليل وأسس مدينة في مركز متوسط يلجم إلية

عند الضرورة وسماها فيليبوبوليس¹ نسبة إليه، فأرسلت روما القائد الشهير فلامينيوس لتسكين الخواطر في اليونان والقبض على أنبيال القرطاجي الذي كان نزيلاً عند بروزياتس ملك بثينيا وينفتح سمه دسائسه في بلاد اليونان ويحرض فيليب وغيره على معاداة روما ومنازلتها انتقاماً منها على ما أنتهى مع قرطاجة.

ولما اخترق فلامينيوس بلاد اليونان وأعاد السكينة إليها قصد عاصمة ملك بروزياتس وطلب منه تسليم أنبيال فلم ير بدأ من الإنذار طلباته خوفاً من سطوة حكومته، وخشية أن تمد روما يدها الخاطفة إلى بلاده خصوصاً وأنها لم تبخ عليه بإقطاعه بعض أملاك انتيوكوس فأمر بالقبض عليه وإحضاره، ولما علم أنبيال بذلك تجرع السم بنفسه حتى لا يقع في أيدي من لم يرحمه (سنة ١٨٣ ق.م.) وبذلك انتهت حياة هذا البطل الذي ززع أركان الحكومة الرومانية وكاد يدخل روما لولا وطنية الأمة الرومانية وثباتها أمام النوايب والنوازل وبذلها الأموال والأرواح لإنقاذ وطنها من احتلال الأجنبي وإجلائه عنها.

ولما علم سনاتو روما بمساعي فيليب أطلق صراح ابنه دمتريوس الذي كان أخذ ضمن الرهائن وأرسله إلى بلاده ليكون نصيراً للروماني على والده، فذهب إلى مقدونيا وصار رئيساً للحزب المصافي للرومانيين وكان له أخ لأبيه يدعى (پرسي) فخشى پرسي من أن يرث دمتريوس الملك بعد أبيه دونه بسبب أن والدته ليست من العائلة الملوكية فسعى به لدى والدهما وأقنعته بأن دمتريوس يؤمن لقتله فحقن عليه والده وقتله سنة ١٨١ ثم ندم على تسرعه وحزن حزناً شديداً كان سبباً لوفاته في سنة ١٧٩ فخلفه ابنه پرسي المعادي للرومانيين، وتظاهر في أول أيامه بقبول الشروط التي قبلها والده وأخذ في استئمالة القبائل المجاورة له وملوك اليونان بآسيا الصغرى وفي تحريض المتربيين على تعدي الحدود الرومانية وأرسل وفداً إلى قرطاجة يطلب منها المساعدة والمعاونة سراً وأخذ يستعد لحربة الرومانيين ومنازلتهم.

¹ لم تزل هذه المدينة باقية لآخر واسمها الحالي فيلية وهي عاصمة إمارة البلغار.

محاربة مقدونة وجعلها ولاية رومانية

ولما علم ملك برغامة بهذه الاستعدادات أخبر الحكومة الرومانية لتأخذ حذرها لكي لا تتهمه فيما بعد بمعاملة المقدونيين، فأرسلت روماً وفداً مؤلّفاً من سبعة أشخاص إلى بلاد اليونان لإبطال مساعي (پرسبيه) وتحذيرهم من سوء العاقبة لو اتبعوه، وأرسلت لمقدونية جيشاً من خمسة آلاف مقاتل في سنة ١٦٩ ق.م. وانقضت هذه السنة في مناوشات خفيفة بين الطرفين لم تأتِ بفائدة قطعية.

وفي سنة ١٦٨ انتخب پوليوس أميليوس^١ قنصلاً وسافر للانضمام للجيش المحارب في مقدونية، وبعد أن أعاد النظام إلى الجيش ومرنه على الحرب في عدة مواقع ومناوشات صغيرة قصد العدو وحاربه في سهل فسيح بالقرب من مدينة پيدنه^٢ وانتصر عليه نصراً عظيماً في ٢٢ يونيو سنة ١٦٨ أثبت به أفضلية النظام الروماني على النظام اليوناني الذي كان وضعه إسكندر الأكبر بعد تجاربه العديدة.

وبعد أن تبدد شمل الجيش المقدوني هرب (پرسبيه) ولجا إلى بعض القرى الصغيرة، ثم سلم نفسه للقائد الروماني مع بكر أولاده بسبب وقوع أولاده الآخرين بين أيدي الرومانين بدسيسة وخيانة أحد أتباعه فأرسله وأولاده إلى روما.

وأعلنت الحكومة الرومانية بحرية بلاد مقدونية ولم تضم إليها شيئاً منها في بادئ الأمر اكتفاء بأخذ نصف ما كان يدفعه پرسبيه من الجزية، ثم قسمت هذا الإقليم إلى أربعة

^١ هو ابن بول أميل الشهير الذي حارب القرطاجيين في الحرب البونيقية الثانية مع (فارون) وانتصر عليهم سنة ٢١٦ ق.م. كما سبق ذكره في موضعه.

^٢ واسمها الآن كيتروس وهي واقعة على خليج سلانيك ببلاد الدولة العلية.

أقسام وحظرت على أهالي كل قسم الاتجار والتزاوج مع سكان القسم الثاني حتى تتحل من بينهم روابط الوطنية والقرابة، وقسم كذلك إقليم إيليريا إلى ثلاثة أقسام بهذه القيود. أما پرسیه فسجن في مدينة روما ولم تطل مدة به فإنه امتنع عن الأكل حتى مات جوغاً.

ولقد كان لانخال پرسیه وقوعه في أسرا الرومانيين دوي عظيم في جميع بلاد اليونان، بل في جميع المالك الواقع على شواطئ البحر المتوسط فحضر پروزیاس ملك بثينييه إلى روما ومثل أمم مجلس السناتو بكل خشوع وخضوع وأراد ملك برغامه ومسينسا ملك نوميديا الاقتداء به فمنعتهم الحكومة الرومانية عن مفارقة بلادهم وألزمت ملك أنطاكيما الكف عن محاربة مصر والعودة بلاده ورد ما أخذه من مصر إليها، ونفت من بلاد اليونان كل من كان معارضًا لأعمالها أو متظاهراً بالميل ولو قليلاً لجانب ملك مقدونية.

وبالاختصار صارت هي الدولة الوحيدة المسموعة في جميع هذه البلاد وخشي سلطتها البعيد قبل القريب.

لكن لم تكُف هذه الإجراءات لإلقاء الرعب في قلوب أهالي مقدونية، بل أخذوا يسعون جدهم في تحرير بلادهم وتخلص وطنهم من تسلط الأجنبي فأثاروا الأهالي أكثر من مرة، وحصلت بينهم وبين جيوش الرومان حروب سالت فيها الدماء أنهاراً وقتل فيها أغلب هذه الفئة الغيورة على استقلال بلادها، وأخيراً لما تضعضع حال البلاد وصارت غير قادرة على إبداء أقل مقاومة وقتلت سراتها وأشرافها أعلن مجلس سناتو روما في سنة ١٤٢ بجعل بلاد مقدونية ولاية رومانية وسلبها ما كان ترک لها من الاستقلال الظاهري. وكذلك لما نخر الشقاق عظام الأمم اليونانية وانفصمت عرى اتحادها وصارت أشتاتاً تسعى كل منها للإضرار بأختها للتقارب من روما وماتت العواطف الوطنية فيها بدسائس الرومان أعلنت الحكومة الرومانية بجعل بلاد اليونان ولاية رومانية واحدة، وبذلك نجحت سياسة روما أي نجاح وزال استقلال بلاد اليونان ومقدونيا تماماً وصارت ولايات رومانية كما تبعها غيرها تدريجاً حتى صار البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية كما سترى.

زوال ملك قرطاجة وخرابها

ولنتكلم الآن بالإيجاز عما حصل لهذه الجمهورية الإفريقية القديمة من بعد أن أخضعتها الرومانيون عقب الحرب البونيقية الثانية وحصروا دولتها في بلاد تونس وأوجدوها بجانبها جاراً شديداً البطاش عليها قديم العداوة لها وهو مسينساً ليكون في جسمها كالسرطان في جسم العليل إن برع من جانب ظهر في الجانب الآخر حتى يقضي العليل نحبه ويستريح بالموت الأحمر من هذا الداء الأزرق، هكذا كانت حال قرطاجة بعد الشروط القاسية التي قبّلتها مضطرة غير مختارة عقب انهزام بطالها الشهير انبيال في موقعة (زاماً) فإن مسينساً ما انفك بعدها يوجد كل يوم سبباً للشقاق بينه وبين قرطاجة ويتعدى الحدود المعينة له ويختلس الأراضي بدون أن تجرّ الحكومة القرطاجية على صد هجماته أو منع تعدياته بسبب الشروط التي تم عليها الصلح بينها وبين روما التي تحرم عليها إعلان الحرب على أحد مجاوريها بدون تصريح الحكومة الرومانية، فكانت تكتفي بالشكوى إلى باب سناتور روما الأعلى ولا تجد منه إلا أذناً صماء حيث كان من صالح روما إضرام نار الفتنة بين الجارين حتى تحصل على ضالتها المنشودة وهي الإجهاز على قرطاجة يوماً ما. لكن لما كثرت شكوى قرطاجة من جارها أرسلت الحكومة الرومانية رسلاً لتسوية ما بين الجارين من الخلاف وتوطيد أسباب الاتفاق والوئام بينهما إلى حين.

وكان من ضمن أعضاء الوفد (كاتون) فوجد حالة قرطاجة في غاية اليسار وخزائنهما ملأى بالدرّاهم ومخازنها مفعمة بالأسلحة والذخائر الحربية وتجارتها رابحة على عكس ما كان يؤمل الرومانيون بعد انتصارهم.

ولما كانت هذه الحالة المرضية غير منطبقة على رغائب أمته انقلب كاتون على قرطاجة وصار من أكبر المحرضين على التعجيل بالإجهاز عليها قبل أن تزداد قوتها فيخشى منها ويتضطر روما إلى محاربتها حرباً ربما كانت عاقبتها وخيمة على الأمة الرومانية، وصار

يخطب بذلك في كل صقع ونادٍ ويختتم خطاباته ومحراته بهذه العبارة التي صارت في اللغات الأوروبية إلى الآن مجرى الأمثال وهي *Delenda est Corthago* ومعناها يجب تخریب قرطاجة.

ولقد أثرت خطاباته هذه في الرأي العام وبالتالي في رجال الحكومة تأثيراً شديداً حتى اقتنعوا بضرورة محاربة قرطاجة ثانيةً وجعلها ولاية رومانية بسيطة، وانتهزت لتنفيذ غرضها هذا فرصة تعدى مسنيسا على حدود قرطاجة وقيام الجنود القرطاجيين لصد غاراته، فأعلنوها روماً بأنها خالفة نص شروط الصلح بمحاربتها جارها بدون استئذان سانتو روما فأزعمت قرطاجة للقوة واسترجعت جيوشها وتركت مسنيسا يعثو في حدودها فأساداً إرضاء لخاطر الحكومة الرومانية وإنذاعاً للقوة دون الحق.

ومع كل هذا التذلل لم تعاملها روما بالعدل، بل أرسلت إليها جيشاً مؤلفاً من نحو ثمانين ألف مقاتل تحت قيادة سيبيون إميليان Scipion Emilien (في سنة 149 ق.م.) لمجازاتها على إخلالها بالعقود، ولما رأت قرطاجة أن الرومانيين ينونون محواها من عالم الوجود عادت الشجاعة إلى أهلها وتعاقدوا وتضافروا على محاربة الأجنبي حتى يموتون عن آخرهم أو يعيشوا أحرازاً خصوصاً بعد أن ظهر قصد روما السيء وعدم اقتناعها بأخذ جميع ما لدى القرطاجيين من الأسلحة ومعدات الحرب وطلبهما خروج جميع السكان من المدينة وسكناتهم بعيداً عنها بمسافة عشرة أميال، عند ذلك قفل القرطاجيون أبواب مدinetهم وأخذوا في الاستعداد للحرب آناء الليل وأطراف النهار وجمعوا كل ما لديهم من الأشياء الحديدية وصنعوا منها أسلحة جديدة غير التي أخذها الرومانيون، وقبض الحزب الوطني على **أعنٰة** الحكومة وقتلوا كل محاذب لرومـة وجمعوا جيشاً مؤلفاً من نحو سبعين ألف مقاتل تحت إمرة قائد وطني يدعى ازدروبال، وتفانـت النساء قبل الرجال في الاستعداد للحرب حتى قيل: إنـهن قطعن شعورـهن لتصـنـعـ منهاـ الحـبـالـ الـلاـزـمـةـ للـمـنـجـنـيـقـاتـ الـتـيـ وـضـعـتـ عـلـىـ أـسـوـارـ المـدـيـنـةـ،ـ لـكـنـ لـمـ تـجـدـهـمـ كـلـ هـذـهـ الـاسـتـعـدـادـ نـفـعاـ فـإـنـ الروـمـانـيـنـ اـحـتـلـوـ ثـغـرـ (ـأـوـتـيـكـ)ـ وـحـاصـرـوـ مـدـيـنـةـ قـرـطـاجـةـ بـرـاـ وـبـحـرـاـ وـمـنـعـوـ وـصـوـلـ المـؤـنـةـ إـلـيـهـاـ لـيـضـطـرـوـهـاـ لـلـتـسـلـيمـ جـوـعاـ.

وأـتـىـ كـلـ مـنـ الـفـرـيقـيـنـ مـنـ الـأـعـمـالـ الـحـرـبـيـةـ بـمـاـ شـهـدـ لـهـ الـقـوـادـ الـمـتأـخـرـونـ وـمـنـ ضـرـوبـ الـقـتـالـ وـفـنـونـ الـاستـحـكـامـ لـلـهـجـومـ مـنـ جـهـةـ وـالـدـفـاعـ مـنـ الجـهـةـ الـأـخـرىـ.

وـبـعـدـ أـسـتـمـرـ الـحـصـارـ بـهـذـهـ الـكـيـفـيـةـ نـحـوـ سـنـةـ اـنـتـصـرـ سـيـبـيـونـ الـرـوـمـانـيـنـ عـلـىـ اـزـدـرـوـبـالـ الـذـيـ كـانـ تـنـتـظـرـ قـرـطـاجـةـ نـجـاتـهـ بـنـجـاحـهـ،ـ وـأـخـيـرـاـ دـخـلـ الـرـوـمـانـيـوـنـ الـمـدـيـنـةـ

عنوة لكنهم لم يصلوا إلى القلعة القائمة في وسطها إلا بعد أن حاربوا الأهالي في الشوارع شارعاً فشارعاً، بل بيتاً بيتاً مدة ستة أيام وست ليالٍ متواصلة، وأخيراً سلم من بقي فيها من المحاربين ومعهم قائدتهم ازدروبال، ولم يصبر على المقاومة إلا نحو ألف شخص امتنعوا في هيكل اسكتلاب (إله الطب عند قدماء اليونان والرومان) وأضمرموا فيه النار ليموتوا عن آخرهم حتى لا يروا خراب بلادهم، وكان بهذا الهيكل زوجة ازدروبال ومعها ولداها فصعدت بهما إلى أعلى الهيكل وقتلت هما بيدها أمام زوجها بعد أن وبخته على خيانته لوطنه، ثم ألقى بيضها من شاهق الهيكل فسقطت في النار وذهبت ضحية الوطن بينما كان زوجها يئن في حالة الأسر والذل والخذلان.

ثم أصدر سناتو رومة أمراً سامياً يجعل الأرضي التابعة لقرطاجة ولاية رومانية وأطلق عليها اسم (أفريقيا) وبذلك زالت هذه الأمة من الوجود السياسي بعد أن بلغت من العمران واتساع نطاق الاستعمار شأوا عظيمًا ونالت من التجارة الأرباح الباهظة، دخلت في خبر كان وصارت أثراً بعد عين شأن جميع الدول والممالك قدیماً وحديثاً إذ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.